د. حسين عبد البصير

كتاب الأسرار

كواليس اكتشاف أهم وأعظم الآثار في مصر والعالم

فريق متميزون

دار دَوِّن

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتاب الأسرار

(كواليس اكتشاف أهم وأعظم الآثار في مصر والعالم)

د. حسين عبد البصير

عن الكتاب..

- يمتد اكتشاف أثرٍ واحد لسنواتٍ طويلة، وينتج عن اكتشاف أثرٍ واحد معرفة بالتاريخ قد تمتد لأكثر من ألفِ عام.

- إن عملية كشف الآثار هي مغامرةٌ شيقة ومثيرة لا تقِل شغفًا وغموضًا وإثارة عن كل الحكايات والأساطير وقصص الحب والحرب.

- قصص اكتشاف الآثار بها من المتعة والمعرفة ما يُعادل تاريخ كامل، نحن نتحدث عن اكتشاف أشياء خبأتها الأرض لآلاف السنين، وكل أثر يحكي تاريخ ملوك وحروب ومجتمعات ومدن أشبعت الأرض زخمًا وحياة، ثم طوتها الأرض بلا رجعة.

وفي هذا الكتاب نكتشف معًا قصصًا مثيرة وسردًا ممتعًا لقصص اكتشاف أهم الآثار في مصر وفي العالم، نتعرض من خلال تلك القصص لمعلومات نادرة وحصرية.. يجمع المؤلف بين يديك كواليس سرية وقصص حقيقية وحكايات لم يعرفها أحد من قبل عن أسرار الأرض وما بها من آثار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهـــــداء

إلى

علماء الآثار العظام في مصر والعالم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقديم

لذة الاكتشافات وأسرار الآثار

يقودُنا سِحر الآثار إلى اكتشافات عظيمة ومدهشة في مواقع مختلفة في كل بقعة من بقاع العالم، والتي تتزين بها المتاحف الموجودة في أنحاء مصر والعالم أجمع..

وفي مصر، أصل الحضارة وأُم الدنيا، يمكننا أن نتعرف على الكثير من الغرائب والعجائب والأسرار المثيرة في دنيا الآثار، والتي ساهمت في معرفة العالم بروعة كنوز وسحر مصر القديمة. وتمثَّلت في اكتشافات عظيمة مثل اكتشاف مقبرة «توت عنخ آمون» وأسرار مثل أسرار الملك خوفو في وادي الجرف، واكتشاف وادي المومياوات الذهبية في الواحات البحرية، والتي تعكس السحر والجمال في صحراء مصر الغربية.

كما يمكننا أن نغوص في آثار الإسكندرية الغارقة لنتعرف على تاريخ هذه المدينة المدهشة عروس البحر المتوسط. ونمرُّ على صحراء الجيزة لنتعرف على مقابر بناة الأهرام، ونقول ونثبت للعالم كله أن المصريين القدماء هم مَن بنوا الأهرامات ولا أحد غيرهم. ونحفر معًا في خبيئة معبد الأقصر كي نخرج كنوز الأجداد العظيمة. ونرتحل بمراكب خوفو لنتعرف على أسرارها المثيرة، ونقرأ في تفاصيل اكتشاف هرم سخم خت، ونذهب بعدها إلى الدلتا ونتعرف على كنوز تانيس الذهبية. ثم ندخل إلى مقبرة جميلة الجميلات الملكة نفرتاري لنرى السِّحر والجمال مجسَّدَيْن في عالم الفراعنة الساحر.

إضافة إلى عددٍ كبيرٍ من الآثار المدهشة التي تزخر بها الأراضي المصرية منذ آلاف السنين، والتي تتجلى عظمتها أيضًا في متحف اللوفر في عاصمة النور الفرنسية؛ باريس. وفي المتحف البريطاني في لندن بكنوز ساحرة خصوصًا درة التاج الذي يحوي حجر رشيد. كما غزا الفراعنة بآثارهم اليابان والولايات المتحدة الأمريكية، كذلك إضافة إلى متحف «والترز» في مدينة بلتيمور في ولاية ميريلاند.

ولأن حقل الآثار لا ينضب أبدًا فسنأخذ جولة في تفاصيل عجائب وغرائب الاكتشافات العالمية التي خلدت في صفحات التاريخ، حيث كنوز أور التي جاءت لتسحر الجميع في كل مكان في العالم. وأسرار التوراة المقدَّسة التي أدهشتنا في جوف الصحراء، وجيش التماثيل الذي يحرس الإمبراطور ٢٢٠٠ عام بإعجاب بالغ. وسنعرف كيف نجحت عائلة ليكي في العثور على جد للبشرية في أخدود أفريقي، وكيف تم إنقاذ سفينة غارقة، فنشأ عِلمُ الآثار الغارقة المثيرة.

إن الآثار التي تم اكتشافها، والموجود بعضها في المتاحف حاليًا، هي ثمرة اكتشافات علماء الآثار الذين ساهموا في إبهارنا بالبحث عن الإنسان وتاريخه في باطن الأرض أو تحت المياه؛ تحقيقًا للذة الاكتشاف ولكتابة جزء مهم من تاريخ الإنسانية بأحرف من نور، ولقد خطا القرن العشرون وبدايات القرن الحادي والعشرين خطواتٍ واسعةً في حقل الآثار في العالم، واتسعت دائرة نطاقه لتشمل اكتشافاتٍ أثريةً هزَّت العالم منذ لحظة اكتشافها إلى الآن. وإذا نظرنا إلى تلك الفترة نظرةً أثريةً، لوجَدْنَا أنها أعظم القرون في تاريخ البشرية من ناحية الاكتشافات الأثرية، ففيها باحت الأرض بأسرارها وحدَّثت أخبارها، وأخرجت العديد من الروائع التي لم نكن نعرف عنها شيئًا، ونتجَ كل هذا بفضل التقدم العلمي المذهل وتطوُّر عِلم التنقيب عن الآثار واستقلال منهجه عن العلوم الأخرى، وتفرُّغ رجال البحث للعثور على الآثار المفقودة. ووجدوا اللذة والمتعة اللتين لا يعادلهما أيُّ شيءٍ آخر.

فاكتشفنا عددًا كبيرًا من الحضارات العظيمة والمقابر الفريدة والأشياء الرائعة جدًّا التي تقدِّم وتوضِّح لنا المزيد من الأسرار عن دورة حياة وممات أسلاف البشرية الأوائل بعدما حفر الأثريون للبحث عن «أشياء رائعة» في الأرض خلال السنوات الماضية. وأضاف كل اكتشاف وراء الآخر، لبنةً سميكةً في صرح البشرية الشامخ، ومن ثم ازدادت معرفتنا بماضينا على نحوٍ أكثر دهشة وعمقًا وغنى، ولا تُعَدُّ بداية القرن العشرين الأثرية المعرفية كنهايته على أيِّ نحوٍ من الأنحاء. ويعود بعضُ الفضل في تحقيق معظم هذه الاكتشافات الكبيرة خلال قرننا العشرين، إلى واحدٍ من الاكتشافات العلمية المهمة في مجال الكيمياء، وأعني «ثورة راديو - كربون» التي أحدثَها العالم الكيميائي الكبير «ويلارد ليبي»، وحصلَ عن اكتشافه هذا على جائزة «نوبل» في الكيمياء من مَلِك السويد «جوستاف» عام ١٩٦٠م. وقد هزَّ هذا الاكتشاف الكبير عِلمَ الآثار وزلزَل كيانه، وقلب التواريخ رأسًا على عقب، وعرفنا كيف يمكن التأريخ عن طريق «راديو - كربون» والتحقق من تاريخ الأشياء أو زيفها. وجاء هذا الاكتشاف هذه المرة من العقل البشري وليس من باطن الأرض ككل مرة، وبفضله أمكن معرفة التواريخ التقريبية لمعظم الأشياء، وصارالآن، معظم الأثريين في العالم يفكرون ويكتبون عن طريق «راديو - كربون» الذي يُعَد دليلاً حقيقيًّا على مدى قوة وعظم إنجاز «ليبي» العظيم.

وسوف يظل علم الآثار في تطوُّر دائم طالما أن هنالك اكتشافات جديدة عظيمة ومدهشة، وطالما أن الأرض لا تزال تمتلئ بالعديد من الأشياء والآثار المدهشة التي لم تخرج من باطنها بعد، وسوف تحقق الإثارة والمتعة وترسم البسمة والفرحة على وجوه الكثيرين في العالم، سواء أكانوا أثريين متخصصين أو مجرد هواة عاشقين مهتمين بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الباب الأول

كنوز مصر القديمة

كواليس اكتشاف علماء الآثار

لأهم الحضارات على وجه الأرض

(١)
أسطورة الملك «توت»

في الرابع من نوفمبر عام ١٩٢٢، كان المغامر الإنجليزي «هوارد كارتر» على موعد مع الرمال المصرية كي تكشف له عن واحدٍ من أهم أسرارها الدفينة، فيتمكن من تحقيق حلم حياته بعد عناء وطول انتظار، بالكشف عن مقبرة «توت عنخ آمون»، ذلك الأثر الفريد من نوعه الذي أذهَل العالم منذ وقت اكتشافه إلى هذه اللحظة، والذي طغى على كل الاكتشافات الأثرية الأخرى في العالم أجمع، وأصبح أهم اكتشاف أثري في القرن العشرين بدون مبالغة.

أصل الأسطورة

انطلقت حكاية الملك «توت» لتغزو أرجاء العالم كله، وتخلِّد اسم الفرعون الشاب الذي لم يجلس على العرش أكثر من تسع سنوات، حتى صار أشهر ملك في تاريخ الإنسانية كلها بين عشية وضحاها.

ولقد ثبت من دراسة مقتنيات مقبرة الملك «توت» التي أبهرت العالم أجمع أنها لم تكن تخصه وحده، بل كان أغلبها مقتنيات تخص سَلفيه الملكين: والده «أخناتون» العظيم وشقيقه «سمنخ كارع»، وقد تم تجميعها على عجلٍ لإتمام مراسم دفن الملك الشاب الذي مات متأثرًا بجراحه إثر سقوطه من فوق عربته على الفور. ولقد ألهمَتْ هذه المقتنيات والطريقة التي اُكتشفت بها خيالَ الباحثين والمولعين بالآثار وأساطيرها على حدٍّ سواء فنسجوا العديد من القصص والحكايات حول حياة الملك ووفاته ومن هنا نشأت أسطورة الملك «توت».

وقد تعددت المحاولات لاكتشاف مقبرة الفرعون الصغير توت عنخ آمون في وادي الملوك من قبل، فقد اكتشف الأمريكي «تيودور ديفيز» بين عامي (١٩٠٥ - ١٩٠٨م)، إناءً صغيرًا من القيشاني منقوشًا عليه اسم الملك توت عنخ آمون في المقبرة رقم «٥٤» في وادي الملوك، فاعتقد أنها مقبرة الملك توت. ثم اكتشف حجرة وحيدة صغيرة في المقبرة «٥٨»، ووجد فيها خبيئة صغيرة من كسرات ذهبية منقوشة باسميّ الملكين توت عنخ آمون وآي، فاعتقد أيضًا أنها تخص الملك توت. وظلَّ البحث عن مقبرة الفرعون الصغير مستمرًا إلى أن جاء الإنجليزي هيوارد كارتر (١٨٧٤ - ١٩٣٩م)، الذي يعتبر من أشهر من عمَلوا في حقل الآثار المصرية؛ نظرًا للنجاح الهائل الذي حقَّقه بالعثور على مقبرة الفرعون الذهبي الأشهر الملك توت عنخ آمون في صبيحة اليوم الرابع من شهر نوفمبر عام ١٩٢٢م.

رحلة بحث طويلة

وبَعد طول عناء وسنوات عدَّة من الحفر المستمر،، اكتشف كارتر الدَّرَج الحجري أسفل مدخل مقبرة الملك رمسيس السادس (المقبرة رقم ٩ في وادي الملوك). وأثبت هذا الدَّرَج أنه أُولَى حلقات السلسلة التي قادته إلى مدخل المقبرة التي حملت رقم «٦٢» بين مقابر الوادي العظيم.

وتعتبر مقبرة الملك «توت عنخ آمون» هي المقبرة الملكية الوحيدة التي وصلت إلى أيدينا كاملة حتى الآن. فبعد وفاة الملك «توت» بمائتيّ عامٍ، قام عُمَّال الملك «رمسيس السادس» من ملوك الأسرة العشرين، دون قصدٍ، برمي الأحجار والرمال المستخرجة من حفر مقبرته فوقَ مدخل مقبرة «توت عنخ آمون» بل وشيَّدوا أكواخهم فوق هذا الرديم. ولولا هذه المصادفة العجيبة لما نجت مقبرة الفرعون الشاب من أيدي لصوص المقابر في كل العصور، ولما وجدها «كارتر» في صبيحة الرابع من نوفمبر عام ١٩٢٢ بعد بحثٍ مضنٍ دامَ خمس سنواتٍ طُوَال.

وفي عام ١٩١٧م، حصل اللورد هربرت إيرل كارنارفون الخامس (١٨٦٦ - ١٩٢٣م) على موافقة مصلحة الآثار المصرية بالتنقيب في وادي الملوك. وكان حُلم كارتر العثور على مقبرة الفرعون الصغير توت عنخ آمون بين مقابر وادي الملوك، فطلبَ اللورد كارنارفون من كارتر أن يجري الحفائر لحسابه في الوادي، وكان «كارتر» يتمتع بسُمعة أثرية كبيرة؛ فقد سبق له اكتشاف مقبرة الملك «تحتمس الرابع» عام ١٩٠٣م بمساعدة الأمريكي «تيودور ديفيز». فقد كان الاثنان على يقين من أن مقبرة الفرعون الصغير لم تُكتشَف بعد، وأن الافتراضات التي ادعاها «تيودور ديفيز» غيرُ صحيحةٍ، وأن المقبرة ما تزال في بطن الوادي لم تُبِح بأسرارها بعد، وكان من بين ما أكَّد ظنهما أن مومياء الملك الصغير لم تُكتشَف في أي خبيئة مومياوات ملكية، مما يعني أن المقبرة ما تزال سليمة لم تُكتشَف بعد. وبدأت الحفائر في العام نفسه، ومضى دون أي نتائج مشجعة.

وتذكَّر «كارتر» كل ما قاله أسلافه علماء الآثار السابقون أمثال «جان - فرانسوا شامبليون» و«جاستون ماسبيرو» و«جيوفانى بلزوني» من أن الوادي قد لفظَ كلَّ ما بداخله.

واستمر الحفر خمس سنوات أخرى دون نتائج مرجوة. ويقول كارتر مفصحًا عن تمنياته الداخلية للكشف عن الحلم الذي ظلَّ يراوده طويلاً: «نعمل في شيء لم يُمَس، لذا فلا أحد يعرف ما الذي ربما يجيء، أتمنى مئات المرات شيئًا جيدًا...».

ولم ييأس وواصل العمل. فقد كانت ثقة «كارنافون» تدفعه، وحبه وصبره يشدان من أزره الذي لا يلين. واستمر الحفر خمس سنوات أخرى دون نتائج مرجوة. حتى مرَّ صيف عام ١٩٢٢ بينما كان إيمانُ «كارتر» كبيرًا بأنه سوف يعثر على مقبرة الملك الصغير ذات يوم. وبدأ اللورد «كارنافون» يقنط ويهمل الأمر كلية ويدعه جانبًا. فطلب «كارتر» منه أن يمنحه فرصة أخيرة: وأن ذا الموسم الذي سيبدأ في نوفمبر ١٩٢٢م. واستمر الحفر في مساحة صغيرة مثلثة الشكل أمام مقبرة الملك «رمسيس السادس» لم يسبق الحفر فيها. لقد كان «كارتر» في مأزق حقيقي إن لم يعثر هذا الموسم الأخير على هذه المقبرة، فسوف يرحل اللورد إلى إنجلترا ويفقد التمويل المادي وتذهب جهوده المضنية لسنوات طوال وأحلامه أدراج الرياح.

￼

توت عنخ آمون أشهر ملوك العالم قديمًا وحديثًا.

الفرصة الأخيرة

لم يكن «كارتر» يعلم أن صباح الرابع من نوفمبر هو يومُ مجده الحقيقي. ويقول في كتابه الممتع عن مقبرة الملك «توت عنخ آمون» في معرض حديثٍ عن ظروف الاكتشاف: «هذا هو بالتقريب الموسم الأخير لنا في هذا الوادي بعد تنقيبٍ دامَ ستة مواسم كاملة. وقف الحفَّارون في الموسم الماضي عند الرُكن الشمالي الشرقي من مقبرة الملك «رمسيس السادس». وبدأتُ هذا الموسم بالحفر في هذا الجزء متجهًا نحو الجنوب. كان في هذه المساحة عددٌ من الأكواخ البسيطة التي أستعملها كمساكن العمال الذين كانوا يعملون في مقبرة الملك «رمسيس السادس». واستمرَّ الحفر حتى اكتشف أحد العمال درجةً محفورةً في الصخر تحت أحد الأكواخ. وبعد فترة بسيطة من العمل، وصلنا إلى مدخل منحوت في الصخر بعد ١٣ قدمًا أسفل مهبط المقبرة. كانت الشكوك وراءه بالمرصاد من كثرة المحاولات الفاشلة، فربما كانت مقبرة لم تتم بعد، أو أنها لم تُستخدَم، وإن اُستخدمَت فربما نُهبَت في الأزمان الغابرة، أو يحتمل أنها مقبرة لم تُمَس أو تُنهَب بعد. كان في يوم ٤ نوفمبر ١٩٢٢».

ثم أرسل «كارتر» برقيةً سريعةً إلى اللورد «كارنافون» يقول فيها: «أخيرًا، اكتشاف هائل في الوادي، مقبرة كاملة بأختامها، كل شيء مغلق لحين وصولك. تهانينا».

وهكذا سقطت مزاعم علماء الآثار أمثال: «بلزوني» و«ماسبيرو» و«شامبليون» ممن عملوا في وادي الملوك وزعموا أنه لم يعد هناك شيءٌ في باطنه، وهكذا تأكَّد ويتأكد للعالم أن الرمال المصرية لم تَبُح بكل أسرارها

بعد وما تزال تحتفظ بالكثير من الآثار الرائعة في باطنها لأجيال عديدة قادمة حتى تظل مثيرة للدهشة إلى أقصى درجة ممكنة، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. ثم توالت بعد ذلك مراحل الكشف الأخرى إلى أن تم نقل محتويات المقبرة إلى المتحف المصري في القاهرة لتظل شاهدة على حضارة لم ولن تندثر أبدًا. وسوف يتم نقل آثار الفرعون الذهبي كي يتم عرضها كاملة في المتحف المصري الكبير هدية مصر للعالم والإنسانية.

وفي النهاية، أُردِّد مع «كارتر» قوله: «ما يزال الغموض في حياة الملك «توت عنخ آمون» يلقي بظلاله علينا؛ فعلى الرغم من أن تلك الظلال تنقشع أحيانًا، فإن الظلمة لا تختفي من الأفق أبدًا». وهذا في الحقيقة هو شأنٌ من شؤون الحضارة المصرية القديمة العريقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢)
سِرُّ بناء الهرم الأكبر

يعتبر اكتشاف برديات وادي الجرف أحد أهم اكتشافات القرن الحادي والعشرين في عالم الآثار، فقد بدأت البعثة الفرنسية بقيادة عالم الآثار الفرنسي الدكتور بيير تاليه العمل في وادي الجرف بالقرب من السويس منذ عام ٢٠١١. وكشفت عن آثار لميناء يعتبر الأقدم في تاريخ الملاحة البحرية العالمية. وتم بناء الميناء على مساحة كبيرة. ومن خلال الأختام الطينية والبرديات والنقوش الصخرية التي تم اكتشافها في هذه المنطقة، أمكَنَنا تأريخ هذا الموقع بعهد الملك خوفو صاحب الهرم الأكبر بالجيزة.

وفي عام ٢٠١٣ عثرت البعثة على مجموعة رائعة من البرديات عند مدخل مغارتين. وكانت البرديات مدفونةً بين الكُتَل الحجرية التي تم استخدامها لإغلاق المغارة بعد الانتهاء من العمل. وافترضت البعثة أن تكون هذه المغارات كانت تستخدم كوِرَش عملٍ ومخازن وأماكن سكنية. ويَذكُر تاليه أن هذه البرديات تؤكد أن هذا الموقع كان مستخدمًا في عهد خوفو، وأن فريق العمل الذي كان يعمل في الموقع هو نفسه الذي عملَ في بناء الهرم الأكبر. في رأيي، فإن هذا يشير للقدرة العالية للجهاز الإداري للدولة في عهد خوفو.

نَص برديات وادي الجوف

إن أجزاء البردي المكتشفة تُعَدُّ الأقدم في تاريخ الكتابة المصرية إلى الآن، ويصل عددها إلى حوالي ٤٠ من برديات خوفو. والبرديات عبارة عن عدة مئات من قطع البردي بعضها يصل طوله لحوالي ٨٠ سنتيمترًا. وهي أقدم برديات مكتوبة بالكتابة الهيراطيقية، وبها بعض أجزاء بالهيروغليفية مختصرة بتاريخ تعداد الماشية رقم ١٣ من عهد خوفو. وكان تعداد الماشية يتم مرة كل عامين، وهو يعني أن التاريخ المذكور هنا هو العام ٢٦ من عهد خوفو. ويظهر في النَّص في السطر الرأسي الأول «تعداد الماشية رقم ١٣»، واسم الملك الحوري في السطر الثاني (مچدو)، ثم اسم الملك التتويجي «النسوبيتس»، «خنوم - خو - إف - وى»، يليه اسم فريق العمل في الموقع، ثم يوميات العمل.

إن أغلب البرديات المُكتشفَة توضِّح توزيع الحصص اليومية للأطعمة التي كانت تستجلب من مناطق عديدة في دلتا النيل. والنَّص الوارد على البردية من النوع الحسابي؛ إذ يتناول عملية توزيع حصص الأطعمة والمناطق المجلوبة منها، وهي منظمة في شكل جدول يظهر فيه اسم السلعة والمكان

القادمة منه وكمياتها. وتظهر دون شك سيطرة الجهاز الإداري على شؤون البلاد بمختلف أنحائها وضواحيها بصورة مركزية ووفق تنظيم دقيق وواضح.

ومن أبرز البرديات المكتشفة في وادي الجرف مجموعة قطع يزيد بعضها في عرضه على ٥٠ سنتيمترًا، تكتسب نصوصها أهميةً كبيرةً حيث إنها تقرير يومي بأنشطة أحد كبار الموظفين المسؤولين من العاصمة منف، وهو مسؤول عن أحد فِرق العمل الفنية في الموقع، وهو المفتش «مرر»، والذي كان يقود فريقَ عملٍ مكونًا من عدد كبير من الرجال. وأمدت البرديات بمعلومات عن ثلاثة أشهر من حياة «مرر» الوظيفية، مما جعلنا نعرف الكثير من الأمور عن حياة الموظفين في عصر الأسرة الرابعة، ومنها قيام فريق العمل بنقل كتل الحجر الجيري من محاجر طرة على الضفة الشرقية للنيل إلى هرم خوفو عبر نهر النيل وقنواته.

ونَص البردية يظهر فيه الشهر في شكل سطر كبير باعتباره عنوانًا، وتحته في أسطر رأسية خطوط تمثِّل خانات تفصل بينها، تبدأ برقم اليوم، وتحته في سطرين رأسيين، تقرير بالنشاط الذي أداه فريق «مرر» في هذا اليوم. ويشير كثير من الأنشطة إلى أعمال مرتبطة بالأعمال الإنشائية في الهرم الأكبر وعمليات قَطْع أحجار الحجر الجيري الجيد من محاجر طرة والمعصرة والتي كانت تستخدم في كسوة الهرم. وتشير اليوميات أيضًا لتفصيلات ووصف لعملية نقل الكتل الحجرية من موقع المحاجر، «را ستاو الجنوبية» و«راستاو الشمالية» لمكان إقامة الهرم عبر نهر النيل والقنوات والتُّرَع المرتبطة به. وتشير نصوص البردية إلى أن هذه الكتل كانت تستغرق عملية تسليمها عدة أيام لمنطقة «آخت خوفو»، وهو اسم هرم الملك خوفو.

وتشير تقارير «مرر» لمرور معظم الإجراءات التنفيذية بمركز إداري هو «را - شي - خوفو» والذي يبدو أنه كان مركزًا لوجستيًا تتوقف عنده فرق العمل قبل تسليم ما يحملونه في منطقة هضبة الجيزة. وتشير النصوص إلى أن هذا المركز اللوجستي كان تحت إشراف أحد كبار موظفي الدولة، وهو المدعو «عنخ - حاف»، وهو أخ غير شقيق للملك «خوفو»، وكان المشرف على كل الأعمال الملكية. وتؤكد هذه اليوميات أنه ربما كان يقوم بأعمال الوزير والمهندس المسؤول عن المشروع القومي لإقامة الهرم في مراحله الأخيرة. وبالتأكيد كان الهرم في مراحل إنشاءاته الأخيرة مع اقتراب نهاية حكم الملك «خوفو». ويبدو أن ما يفسر وجود مثل هذه التقارير المهمة في وادي الجرف أن نفس فِرَق العمل التي كانت تعمل في البرامج الإنشائية للمقابر الملكية كانوا مسؤولين عن مشروعات الدولة الأخرى، ومنها أعمال وادي الجرف. وربما كانت هذه الفِرَق الموجودة في الموقع معنية بإحضار النحاس من

مناجم النحاس بجنوب سيناء، وهو النحاس المستخدم في تصنيع أدوات كانت تستخدم في الأعمال الإنشائية بالهرم.

ويُعَدُّ ميناء وادي الجرف من أهم الموانئ في مصر القديمة حيث انطلقت منه الرحلات البحرية لنقل النحاس والمعادن من سيناء إلى الوادي. وبعد ذلك قام «مرر» وفريقه بعملية غلق موقع الميناء ومغاراته بكُتَل حجرية ضخمة. وكان هذا في العام الـ ٢٧ من حكم خوفو، وهو تاريخ يرتبط بتوقُّف أعمال استخراج النحاس والفيروز من مناجم جنوب سيناء، وربما يرتبط بتاريخ انتهاء الأعمال في إنشاء الهرم.

وفي عام ٢٠١٦، كشفَتْ بعثة أثرية تابعة لوزارة الآثار عن وجود واحد وعشرين مرساوات «مخطاف» وذراعين من الأحجار منتظمة الشكل، والعديد من الأواني الفخارية من عهد خوفو بالموقع. ويظهر أن المرساوات عليها مكان وضع الحبال التي كانت تستخدم في ربط السفن حتى ترسو داخل الميناء، التي يحدّها رصيف داخل مياه البحر الأحمر بطول ١٨٠ مترًا، وتأخذ شكل حوض للميناء لمواجهة الرياح الشمالية في البحر الأحمر، بالإضافة إلى بعض الأواني الفخارية.

وتكمن أهمية برديات وادي الجرف في أنها تؤكد أن مشروع بناء الهرم الأكبر كان مشروعًا قوميًّا، وأن الهرم بناه المصريون القدماء، وأن الهرم بنى مصر، كما تنفي أيَّ ادعاءات كانت تتعلق ببناء الأهرام المصرية.

ولأسباب كتلك يُعَد اكتشافُها أهم اكتشافات القرن الحادي والعشرين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٣)

معبد البوباستيون بالإسكندرية

تعدَّدت تفاصيل وأسباب كل اكتشاف عظيم في عالم الآثار سواء في مصر أو خارجها، ولظروف الاكتشاف الذي تمَّ بالجهة الجنوبية من مدينة الإسكندرية حكاية لم يأتِ على ذِكرها المؤرخ الجغرافي سترابون، والتي تستدعي الفحص والتدقيق في العديد من الحكايات المشابهة لها مثل كتاكومب، أو كوم الشقافة الآن، الذي اكتشف عن طريق ساق حمار، وسُلَّم مقبرة توت عنخ آمون بالأقصر التي كشف عنها صبيٌّ صعيديٌّ، ورسائل تَل العمارنة التي وجدتها فلاحة في مصر الوسطى، أو آثار طروادة التي كشف عنها هاينريش شليمان الذي لم تكن له علاقة بكليات وأقسام الآثار أو مؤسسات وهيئات الآثار.

OBJ

صورة عامة لموقع الحفائر.

صدفة اكتشاف معبد البوباستيون

بدأت حكاية موقع بوباستيون الإسكندرية، وهو المعبد الذي لم يتم الكشف عن معابد أخرى مماثلة له بالمدينة منذ اكتشافه الذي روى عن ودائع أساس معبد السيرابيوم في زمن الحرب العالمية الثانية بين عامي ١٩٤٣ - ١٩٤٥. وذلك بعد طلب رسمي من وزارة الداخلية لبناء بُرجٍ سَكنيٍّ في هذا المكان. وتمت مراقبة الحفر بمعرفة المجلس الأعلى للآثار، وعند العثور على آثار تم وقف حفر بناء البرج السكني باتصالات بين وزيري الثقافة والداخلية والاتفاق على موعد محدد لإنهاء الأعمال الأثرية بالموقع. ثم تمَّ تشكيل بعثة أثرية برئاسة عالم الآثار الكبير الدكتور محمد عبد المقصود، وعدد كبير من الآثاريين المصريين، حوالي ١٣ أثريًا، من الإسكندرية ومحافظات مصر؛ وذلك بموافقة وزارتيّ الداخلية والثقافة والمجلس الأعلى للآثار. وتم الاستعانة باثنين من خبراء المجلس الأعلى للآثار على المعاش وهما: الدكتورة ميرفت سيف الدين، والأثري الكبير الأستاذ أحمد عبد الفتاح؛ وذلك لتوثيق وتوصيف الآثار التي تُكتشف في الموقع.

OBJ

الحفائر الأثرية بالموقع.

أما عن طبوغرافيَّة ([1]) الموقع، فلم يتعرض له أثريو الإسكندرية القدامى، مثل: بوتي، وبرتشيا، وأدرياني، وألان رو، وهنري رياض. وكذلك لم يتحدث عنه سترابون في وصفه للإسكندرية قديمًا. كما أنه يوجد بمسار سور الإسكندرية العربي (في العصر الطولوني). وذكرت الدكتورة منى حجاج، أستاذ الآثار الرومانية واليونانية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية في كتابها: «الإسكندرية القديمة: العالم في مدينة» الرأي العملي في الموقع، حيث تقول: «أخيرًا ومنذ أقل من عامين، تُقدِّم الإسكندرية آثار معبد لم نسمع به من قبل من المصادر الكتابية، وربما يكون البوباستيون هو المعبد الوحيد الذي تُكشف أطلاله دونما سابق خبر عنها، في عام ٢٠١٠ أثناء حفر بعض الأساسات داخل مقر قوات الأمن المركزي في شارع إسماعيل فهمي بالإسكندرية إلى الجنوب من شارع فؤاد، اصطدمت الحفارات بأساسات بناء قديم، هرعت بعثة من المجلس الأعلى للآثار بقيادة الدكتور محمد عبد المقصود، مدير آثار الوجه البحري آنذاك، لإجراء حفائر نظامية بالموقع».

ثم تحدثت عن المعبد المكتشف قائلة: «كشفت الحفائر عن بقايا مبنى ضخم، يمتد ٦٠ م طولًا و١٥ م عرضًا. وقد تبيَّن أن ما كُشفَ هو أساسات لجزء من المعبد الذي يبدو وأنه كان يحتل مساحة ضخمة تمتد أسفل شارع إسماعيل فهمي.» ثم تذكُر الطراز المعماري للمعبد قائلة: «ومن خلال البقايا المعمارية القليلة تبيَّن أن المعبد كان يحتوي على الطرازين الدوري، والأيوني».

وفيما يختص بالوثائق المكتوبة التي عُثرَ عليها بالمعبد، تذكُر أنه: «ومن أهم المكتشفات قاعدة لتمثال من الجرانيت لأحد كبار القادة، تحمل نقشًا باللغة اليونانية، يخلد موقعة رفح الشهيرة (٢١٧ ق.م). كما كشف أحد الواح ودائع الأساس التي كانت تُوضع عند الأركان الأربعة للمعابد وتحمل نقوشًا تخص بناء المعبد، يفيد النقش المكتشف أن برنيكي الثانية أهدت المعبد والمذبح الخاص بالإلهة بوباستت، لزوجها بطلميوس يورجتيس، وهو الأمر الذي يؤكد انتماء المعبد لعهد بطلميوس الثالث وزوجته برنيكي الثانية (٢٤٦ - ٢٢١ ق.م).»

￼

تماثيل القطط المكتشفة بالموقع.

وتعلِّق الدكتورة منى حجاج على لفظ بوباستيون الوارد في النقش اليوناني قائلة: «إن كلمة بوباستيون الواردة في النقش اليوناني تعني في المصرية القديمة المكان وليس اسم الإلهة المسماة باستت، وقد سمي المعبد كذلك فيما يبدو نتيجة لخطأ لغوي، ربما كان من ورائه الحديث الوارد على لسان هيرودوت حين تحدَّث عن مدينة بوبسطة (تل بسطة الحالية).» ثم تذكُر بعض

الظواهر المعمارية بالموقع قائلة: «وبالقرب من أسوار المنطقة وُجدَت بقايا مبانٍ ربما كانت تمثِّل ورشة أو أتيليه للنحت، كان ملحقًا بالمعبد الكبير، تشير الطبقات داخل الموقع الأثري إلى أن المعبد لم يقم فوق الصخر الجوفي، وإنما سبقته أساساتٌ أقدم، الأمر الذي يدفع للاعتقاد بأن معبدًا لأحد البطالمة الأوَّلين أو من العصور الفرعونية المتأخرة، كان قائمًا بالموقع، وأن الملكة برنيكي قررت أن تعيد بناءه.»

الموقف طبوغرافيًا يقع إلى الجنوب - الغربي من شارعي ١٣٢، ١٣٣ طبقًا لخريطة المهندس محمود الفلكي، التي تمثل مرجعًا لأثريِّ الإسكندرية بشأن ما يختص بتحديد مواقع المكتشفات. وعند وقف العمل بالموقع خلال رفع أكوام الرديم وظهور الطبقة الأثرية ممثَّلة في اللون الأحمر. وقد أسفر الحفر بموقع اللون الأحمر بالكشف عن صهريج مياه نادر في التصميم، يعتمد على مياه الأمطار، ويرجع للفترة المتأخرة من العصر الروماني. وعند قياس سعة الصهريج من الماء، اتضح أنها ١٧ مترًا مكعبًا من الماء بالأدوات الحديثة. وهذا يشير إلى محدودية عدد الموجودين بذلك المكان في ذلك العصر. وعلى عمق حوالي ٦,٥ م من مستوى أرض الشارع، ظهر نوعٌ من صخر كتل أحجار جيرية خشنة. يوحي منظرها بأنها تختلف عن هدم جدار.

الخبيئة الأولى بمدينة الأسكندرية

في يوم ٢٣/١١/٢٠٠٩، ظهرت أول مفاجأة أثرية بالإسكندرية منذ أجيال مضت؛ فقد تم العثور على أول خبيئة بالمدينة منذ التاريخ القديم. والخبيئة هنا طبقًا لعلم الآثار اليونانية الرومانية تسمى Favina، وجمعها Favinae. وهي مكانٌ في المعبد يتم تخزين القطط النذرية به داخل فجوات أسفل أرضيات المعبد تجنُّبًا لحدوث تكدس بالمعبد في حالة كثرة النذور. وهي تختلف عن الخبيئة في الآثار المصرية، ولكن كان المقصود بها هو حماية كنوز المعبد في ظروف غير طبيعية، وتعرف بالفرنسية باللفظ كخبيئة الكرنك الشهيرة على سبيل المثال.

وفي ذلك اليوم التاريخي تم اكتشاف شلال دافق من تماثيل القطط وتماثيل أطفال وأوانٍ، ولكن المفاجأة هي أن أغلب تماثيل القطط كانت على الطراز اليوناني، والقليل منها يقلد القطة المصرية الربة باستت. وهي من الحجر الجيري. وذات أشكال شتى. والمفاجأة الكبرى هي في التماثيل التي كانت مخبأة في جوف الصخر وأسفل الرمال والرديم. وجانب منها لقطط في هيئة يونانية تختلف عن هيئة الربة باستت المصرية، بل بعضُها يقلِّدها. وتحمل نقوشًا نذرية يونانية تعبُّدية. وهي مفاجأة هزت الأوساط العلمية في العالم كله؛ فقد ثبت وللمرة الأولى، أمام العالم كله، أن إغريق مصر كانت لهم باستت خاصة بهم، وموضع عبادتهم، بل إنهم حرصوا على نحتها بالهيئة

اليونانية الموجودة في كل بلاد اليونان، وإيطاليا الإغريقية (الجنوب). ومن الطريف أنهم قد قلدوا الربة باستت المصرية في أمثلة بسيطة. وتوالى الكشف عن الخبيئات في الموقع. وبلغ عدَدُها ثلاث خبيئات. كما عُثرَ على مجموعة تماثيل لأطفال مصنوعة من الرخام الملون. وتتبع مدرسة الإسكندرية في الأسلوب الفني. وعُثرَ على أدوات عبارة عن أدوات ومسارج.

ومن الغريب أن يتم العثور على مجموعة من التماثيل صغيرة الحجم لأرباب مصر في العصر البطلمي، بالجانب الغربي من الموقع. ونقتطف مرة أخرى من كتاب الدكتورة منى حجاج بخصوص علاقة الإغريق بالإلهة باستت، قائلة: «أما عند الإغريق فقد كانت باستت شقيقة لحورس الذي اقترن عندهم بأبولون، ومن ثم اقترنت باستت بأرتميس، توأم أبولون، ربَّة الصيد والفخر، وهكذا تحولت باستت في العصرين البطلمي والروماني إلى إلهة فخرية، وأصبحت رمزًا للأنوثة، حامية للنسوة الحوامل، وربة الخصوبة، وهي أيضًا ربة المرح والرقص، كما كان كهنتها يشتهرون بعلاج اللدغات السامة».

ثم تسترسل بخصوص أهمية الكشف قائلة: «على أي حالٍ، يُعَد هذا الكشف الأول من نوعه في الإسكندرية خاصةً وأن الكتاب القدامى لم يشيروا ر إلى وجود معبد لباستت في الإسكندرية القديمة، من شأن هذا الكشف أن يفتح آفاقًا جديدة في مجال طبوغرافية الإسكندرية في العصر البطلمي المبكر. ومن شأنه أيضًا أن يلقي بعض الضوء على ما كان موجودًا بالموقع عند مجيء الإسكندر الأكبر وأمر ببناء مدينة جديدة.»

وقد كُشف بالموقع عن بئر ساقية، وقنينات لأبي مينا، وبعض العناصر التي تفسر ما لحق به من تدمير، باعتباره معبدًا وثنيًا. وقد كُشف عن ركن واحد فقط من أركان ودائع أساساته. وتم الكشف في ذلك المعبد عن أرضيات مبلَّطة بالحجر الجيري، وأجزاء من مداميك جدرانه، وتماثيل نذرية وأدوات العبادة، وعناصر تماثيل من العصر الروماني.

وبذلك قد تحقَّق أن المكان ربما كان يشغله إغريقٌ على شاكلة إغريق نقراطيس قبل فترة الإسكندر الأكبر، واستمر خلال العصرين اليوناني الروماني، ثم دُمِّرَ خلال القرن الرابع الميلادي عند صدور قرار روما ٣٩٥م بغلق المعابد الوثنية بولايات الإمبراطورية الرومانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(٤)

وادي المومياوات الذهبية

في عام ١٩٩٩م، قام الدكتور زاهي حواس وبعثته الأثرية بالبحث والتنقيب في منطقة الواحات البحرية في الصحراء الغربية - والتي تبعد عن القاهرة حوالي ٣٨٥ كيلومترًا - وقاموا بالكشف عن واحد من أهم الاكتشافات الأثرية في القرن العشرين، الذي أذهل العالم أجمع منذ لحظة اكتشافه إلى الآن. وجاء هذا الاكتشاف ليلقي الضوء على فترة مهمة من تاريخ مصر في بداية العصر الروماني، محاولاً تكثيف بؤرة الضوء على منطقة الواحات البحرية.

وحدث هذا الاكتشاف عن طريق الصدفة البحتة في يوم (٢ مارس عام ١٩٩٩)، عندما غيَّر حمار الشيخ عبد الموجود، حارس معبد الإسكندر الأكبر، طريقَ عودته الليلية بعد انتهاء نوبة حراسة صاحبه، فغاصت قدما حماره في حفرةٍ، فهبط الشيخ عبد الموجود من على حماره ليستطلع الأمر، فنظر فيها، فلم يرَ غير شيء يبرق في الظلام، فذهب إلى مدير آثار الواحات البحرية، ليخبره بما رأى، ولم يكن هذا الذي رآه الشيخ عبد الموجود سوى قناعٍ ذهبيٍّ يغطى وجه مومياء، ومن هنا جاءت تسمية الوادي باسم «وادي المومياوات الذهبية». وقام أثريو الواحات البحرية بإجراء مسح أثريٍّ أوليٍّ للموقع المكتشَف، فتأكدوا من صدق كلام الشيخ عبد الموجود وحقيقة الاكتشاف، فأخطروا الدكتور حواس.

دلالة المومياوات المكتشفة

بدأت أعمال الحفائر العلمية المنظمة في مارس عام ١٩٩٩م، فكشفت النقاب عن عدد هائل من المومياوات الذهبية، مما جعل الدكتور حواس يرجح امتلاء هذا الوادي بعددٍ كبيرٍ منها، في مساحة مكانية كبيرة، تستغرق زمنًا طويلاً من أعمال الحفائر المنظمة؛ ولم يتم اكتشاف إلا ٢٥٠ مومياء. وتعود المومياوات المكتشفة إلى القرن الأول والقرن الثاني الميلادي، عندما كانت مصر تحت الحكم الروماني. وتظهر هذه المومياوات المكتشَفَة، استمرارية الديانة المصرية في هذه الفترة على الرغم من وجود المعتقدات اليونانية والرومانية الخاصة بالطبقة الحاكمة، التي تأثَّرت بدورها بالديانة المصرية القديمة، وأغلب هذه المومياوات المكتشَفَة ذات أقنعة وصدور مذهَّبة ومزخرفة بنقوش هيروغليفية ورسومات دينية.

ويُعَد اكتشاف وادي المومياوات الذهبية من بين أهم الاكتشافات الأثرية الأخيرة التي لعبت فيها المومياوات دورًا مثيرًا، فتلك المومياوات الرائعة الجميلة المغطاة بالذهب دائمًا ما تعطي شعورًا بأن الحياة ما زالت تدبُّ فيها،

كلما نظرت إليها. وكتب د. حواس في كتابه الذي يحمل العنوان نفسه يقول: «كانت طاقة فريق العمل تبدو وكأنها تتلاشى وتزامَنْ ذلك مع الشعور بالإرهاق كلما تزايدَتْ حدة الحرارة مع ارتفاع قرص الشمس في السماء وقلل وجودنا داخل المقابر المنقورة تحت سطح الأرض - من شعورنا بحرارة الشمس المتوهجة التي كانت فوق رؤوسنا مباشرة.

وحقيقة الأمر أن أهم ما كان يجعلنا لا نشعر بحرارة الشمس ومشقة العمل هو ذلك المنظر المهيب حين تتسلل أشعة الشمس إلى المقابر لتسقط على وجوه المومياوات الذهبية فينعكس ضوؤها مثيرًا رائعًا يكاد يعمي الأبصار. عندها يخفق قلبي بشدة، وتغمرنا الدهشة جميعًا. وفي كل مرة نكشف فيها عن مومياء ذهبية نتيقن أننا بمنطقة تحوي أكبر مجموعة من المقابر التي بقيت في حالٍ جيدة من الحفظ تعكس مدى ثراء أصحابها.» ونقل الدكتور حواس إحدى المومياوات إلى معمل الأبحاث بأهرام الجيزة. وأطلق عليها اسمًا تعريفيًّا هو: «مستر أو مدام إكس»؛ إذ إنه لم يكن يعلم جنس المومياء. وكان أمرُ نقلِها مثيرًا للغاية، وبعد تعريضها للأشعة تبيَّن أنها لرجلٍ مات في سن الخامسة والثلاثين تقريبًا.

لعنة مومياوات الأطفال

لعلَّ من بين القصص الطريفة في اكتشاف «وادي المومياوات الذهبية» قصةً ما أطلق عليه الدكتور حواس «لعنة مومياوات الأطفال». والتي حكى عنها قائلًا: «هي قصةٌ طريفةٌ حدثَتْ لي بالفعل عندما نقلت مومياءين لطفلين من إحدى المقابر إلى حجرة صُمِّمَت لتكون متحفًا في المستقبل. وسافرت بعدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية لمدة شهر للتدريس في جامعة لوس أنجلوس، وطيلة هذه الفترة لم تنقطع زيارات المومياءين لي في منامي، وما كنت أدري سببَ ذلك، وذات ليلةٍ وجدتهما يقتربان مني، فقمت من نومي مفزوعًا. ليس هذا فحسب، بل حدثَتْ لي مفارقات عجيبة أخرى، منها عدم الوصول في الموعد المحدد إلى إحدى المحاضرات، وعدم لحاقي بالطائرة المسافرة إلى المدينة التي كان من المفروض أن ألقي بها المحاضرة. وعندما حضرت إلى القاهرة، ذهبت إلى الواحات البحرية، وتوجهت إلى الموقع ذاته الذي كشفت به عن المومياءين، فإذا بي أجد مومياء رجلٍ آخر لعلَّه والدهما، وعلى الفور قمت بنقله إلى جوار المومياءين في حجرة المتحف. ومن بعدها انقطعت زيارتهما لي في منامي، ونعمت بأحلام سعيدة - دون أرقٍ على الإطلاق.» هذه هي قصة هذا الاكتشاف الهام، اكتشاف وادي المومياوات الذهبية.

ولعلَّ السبب في وجود المومياوات المصرية من الأساس يرجع إلى اعتقاد المصريين القدماء في حياة أخرى بعد الموت. فقد كان الحفاظ على الجسد

أهمّ العناصر الأساسية لاستمرار هذه الحياة مرة أخرى. وتطورت عملية التحنيط عبر آلاف السنين من الأجساد المدفونة في حفرات بسيطة في رمال الصحراء إلى الأجساد المعتَنَى بها عناية فائقة بلفها في اللفائف الكتانية.

ويرجع الأصل في هذا الاعتقاد الذي ساد بين عددٍ كبيرٍ من البشر في أنحاء العالم لوجود بعض النقوش داخل بعض المقابر الفرعونية تصبُّ اللعنة على الذين يفسدون على الفراعنة أوقات راحتهم ويسطون على المقابر بغية السرقة، فهؤلاء ستصيبهم اللعنة بمرضٍ لا يعرف الأطباء له علاجًا، وسيموتون في نهاية الأمر.

وكان الهدفُ من وراء كتابة هذه النصوص التحذيرية هو منع اللصوص من اقتحام المقابر وسرقة محتوياتها من الأشياء الثمينة وعدم إعاقة رحلة المتوفي في العالم الآخر حتى يُبعَث من جديد وينعم بحياة خالدة في جنات النعيم. فقد آمن المصري القديم إيمانًا كبيرًا بقوة الكلمة المكتوبة التي كانت تُعَدُّ نوعًا من السحر مما جعله يكتب مثل هذه النصوص واللعنات داخل مقبرته؛ فالكلمة عنده تحمل قدرًا كبيرًا من السحر ولها القدرة على الفاعلية وإعاقة اللصوص عن اقتحام مقبرته وسرقة محتوياتها التي يريد أن يتزود بها في رحلته في عالم الآخرة.

وحقيقة الأمر أنه لا توجد لعنة فراعنة كما يدَّعي البعض. وإن كان هنالك من لقي مصير الموت، فلم تكن لعنة الفراعنة هي السبب. مثل حكاية عالم الآثار الدكتور محرز كمال الذي نفى وقال إنه لا توجد لعنة فراعنة ومات في الحال. ففي حقيقة الأمر أن الدكتور كمال لم يكن في يوم من الأيام عالم آثار فرعونية فلم يحفر داخل المقابر أو المعابد الفرعونية، بل كان واحدًا من المختصين في الفنون الإسلامية؛ لذا فمن غير المنطقي القول إنه مات متأثرًا بلعنة الفراعنة، وإنما مات متأثرًا بأمراض الشيخوخة، فقد كان رجلًا طاعنًا في السن.

ويحدث الموت المفاجئ للذين يدخلون مقابر الفراعنة من الأثريين نتيجة تحلُّل المواد العضوية الموجودة داخل المقابر الفرعونية لآلاف السنين، والموجودة في القرابين التي حرصَ المصريون القدماء على اصطحابها معهم في رحلتهم إلى العالم الآخر حتى يستفيدوا منها في ذلك العالم الغامض الذي اعتقدوا أنه يُشبه عالمهم الأول على الأرض، يحتاج فيه المرء لمأكل ومشرب وملبس، ومن ثم زوَّدوا مقابرهم بهذه الأشياء التي تحلَّلت بمضي الوقت، وأنتجت عددًا لا يُحصَى من الغازات والأبخرة السامة والبكتيريا التي ما إن يتنفسها المرء، حتى يغيب عن الوعي ومن ثم عن الحياة بالتبعية؛ لذا ينصح الأثريون عند افتتاح مقبرة جديدة أول مرة، ولم تكن قد فُتحت من قبل، بأن

تترك فترة زمنية مناسبة حتى تتطهر من كلِّ ما بها من مخلفات عضوية ذات غازات وأبخرة سامة مضرة وبكتيريا. ومن هنا أقول إنه لا توجد لعنة فراعنة، وإنما توجد لعنة الهوس بالفراعنة.

(٥)

كنوز البحر الأبيض المتوسط

منذ فترة قصيرة تم تنظيم معرض «مدن مصر الغارقة» في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية لتوضيح دور وأهمية رب الأرباب أوزيريس وزوجته إيزيس وابنه الرب حورس، وقصة التداخل المصري اليوناني - الروماني في آثار مصر في المرحلة اليونانية - الرومانية، وكذلك قصة اكتشاف هذه المدن الغارقة. ولا يمكن وصف كم حجم الحب والعشق لمصر وآثارها بين الجمهور الأوروبي والأمريكي.

فما قصة الآثار الغارقة المستخرجة من مياه مصر العظيمة التي ما زالت تبهرالعالم منذ لحظة اكتشافها إلى الآن؟

أصل الاكتشاف

يعود حلم اكتشاف آثار غارقة تحت الماء إلى أوائل القرن العشرين، منذ عام ١٩١٠، عندما كان مهندس الموانئ الفرنسي «جونديه» مُكلَّفًا بإجراء توسعات في ميناء الإسكندرية الغربي حيث اكتشف منشآت تحت الماء تشبه أرصفة الموانئ غرب جزيرة فاروس. وفي عام ١٩٣٣، لعبت الصدفة دورًا في اكتشاف أول موقع للآثار الغارقة في مصر، وذلك في خليج «أبو قير»، شرقي الإسكندرية، وكان مكتشفه طيار من السلاح البريطاني، وقد أبلغ الأمير عمر طوسون الذي كان معروفًا بحبه للآثار وكان عضوًا بمجلس إدارة جمعية الآثار الملكية بالإسكندرية في ذلك الوقت، وقد قام الأمير بتمويل عملية البحث والتنقيب التي أخرجت لنا رأسًا من الرخام للإسكندر الأكبر محفوظة الآن بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية.

وفي الستينيات قامَ الغواص ومُحِبُّ الآثار كامل أبو السعادات بوضْع خريطتين للآثار الغارقة، الأولى للميناء الشرقية، أما الثانية فكانت لخليج «أبو قير». وقد شارك أيضًا مع القوات البحرية المصرية في انتشال بعض مكتشفاته من موقع الفنار في أبريل ونوفمبر من عام ١٩٦٢ على التوالي. وانتهت هذه المحاولات بأكبر الأعمال في منتصف الثمانينيات، حيث قامت البحرية الفرنسية بالتعاون مع هيئة الآثار بدراسة موقع غرق أسطول نابليون وانتشال بعض مخلفاته. كما تم تحديد موقع السفينة باتريوت.

أهم الآثار الغارقة التي تم اكتشافها

وفي عام ١٩٩٤م، وصلت البعثة الأثرية الفرنسية برئاسة «جان - إيف إمبرير» المكوَّنة من ٣٠ غواصًا إلى الإسكندرية. وبدأ العمل يأخذ شكلاً آخر، وكشف المسح الذي قام به إمبرير في الميناء الشرقية بالقرب من قلعة قايتباي المملوكية عن وجود أكثر من ٣٠٠٠ كتلة ضخمة (بلغ وزن بعضها حوالي ٧٥ طنًا)، واعتقد المكتشف أنها تمثِّل بقايا فنار فاروس الأسطوري (إحدى عجائب الدنيا السبع) فضلاً عن عددٍ من العناصر المعمارية (أعمدة ومسلات)، وتماثيل على خط الصخور الموازي للساحل، وتاج جرانيتي ضخم لبوابة بطلمية وتمثال للملك رمسيس الثاني على شكل «أبو الهول». وكان أول القطع النحتية التي استخرجها إمبرير من البحر جذع الملكة البطلمية الذي رُفعَ في ٤ أكتوبر ١٩٩٥م، وتلاه بفترةٍ قصيرةٍ اكتشافُ تمثالٍ ضخمٍ لملك بطلمي، ثم توالت الاكتشافات الأثرية بصورة مذهلة.

وفي فترة التسعينيات، توافدَتْ البعثات الأجنبية المهتمة، وبدأت العمل في البحث والتنقيب عن الآثار الغارقة في مصر. ويعد موقع قلعة قايتباي من أهم مواقع تلك الآثار، وتبلغ مساحته ٢٢٥٠٠ متر مربع ويحتوي على أكثر من ٣٠٠٠ قطعة أثرية معمارية. وفي عام ١٩٩٢، قام المعهد الأوروبي للآثار البحرية بأوَّل عملية مسح شامل للتراث الأثري بموقع الميناء الشرقي. واستطاعت البعثة تحقيق إنجاز علمي برسم خريطة طبوغرافية علمية دقيقة لمواقع الآثار الغارقة للميناء الشرقي. وقد أكدت أعمال المسح والحفائر وجود موانئ عديدة داخل الميناء الشرقية.

وقاد فرنسيٌّ آخر، هو «فرانك جوديو» من المعهد الأوربي للآثار الغارقة، مشروعًا ثانيًا لاكتشاف آثار المدينة الغارقة. وعمل «جوديو» على البقايا الغارقة من الأرضية الرخامية الموجودة في ميناء الإسكندرية الشرقية، فظهرت أعمدة ساقطة في مواقعها الأصلية، ووقعت على خرائط مساحية كونتورية، وقال عنها الجغرافي الإغريقي «سترابو»، الذي زار مكتبة الإسكندرية في عام ٢٥ ق.م.، أى بعد مرور حوالي خمس سنوات على حدوث موقعة «أكتيوم» البحرية: «إن شعورًا رائعًا يغشى بقايا المدينة.»، بينما قال جوديو عن اكتشافاته: «أفكر عندما ألمس تمثالاً أو كأسًا أن الملكة كليوباترا، ربما تكون قد سبقتني إلى الفعل نفسه.»

كما تم الكشف عن مجموعة كبيرة من هذه الآثار في مدينة هيرا كليون الغارقة، والتي اكتُشفَت عام ٢٠٠٠ بواسطة المستكشف الفرنسي فرانك جوديو، وكذلك في منطقة شرق كانوبس التي اكتشفها جزئيًّا عمر طوسون عام ١٩٣٤، ثم أعادت بعثة المعهد الأوروبي اكتشاف الموقع. أما أسطول نابليون الغارق في قاع خليج «أبو قير»، فقد حدد أبو السعادات سبعة مواقع لسفن الأسطول قُربَ جزيرة نيلسون عام ١٩٦٦. وانضمت له البعثة

الفرنسية بونابرت بقيادة «جاك دوما» في عام ١٩٨٣. وقد قامت البعثة بمشاركة القوات البحرية الفرنسية والمصرية بانتشال مجموعة كبيرة من حطام الأسطول.

وقد كشفَ العمل تحت الماء عن موانئ ملكية خاصة بالقصور الملكية وبعض القطع الأثرية التي ترجع إلى النصوص الكلاسيكية القديمة، وكذلك مجموعة من العملات الذهبية التي ترجع للعصر الروماني، وكذلك عثر في خليج «أبو قير» على لوحة أساس من الذهب تماثل لوحات معبد السيرابيوم، وهي تتحدث عن قيام بطلميوس الثالث بتأسيس معبد لهرقل، وهو من مادة الحجر الصلبة وتبلغ أبعادها الطول ١.٩٥ العرض ٨٨ سم جرانيت أسود، وكذلك عثر على أحواض وأجزاء من باب برونزي وأدوات مائدة وأباريق إغريقية ومطاحن للحبوب وحُليّ وأدوات تجميل وكذلك عُثرَ على باب من الجرانيت على هيئة صرح مصري يُعتقد أنه باب مقبرة كليوباترا.

إدارة الآثار الغارقة

الآثار الغارقة هي من الإدارات المهمة بوزارة السياحة والآثار المصرية؛ لأنها ذات طبيعة فريدة في عملها الذي ينحصر تحت مياه البحار والبحيرات ونهر النيل حيث توجد الآثار التي غمرتها المياه إما بسبب غرق سفينة أو مبنى، أو تغيُّر مسار النيل، أو عوامل النحر للشواطئ البحرية، أو سقوط قِطَع أثرية في المياه.

وقد تم إنشاء تلك الإدارة في المجلس الأعلى للآثار بعد الاكتشافات المهمَّة في مياه البحر المتوسط بالإسكندرية بين عامي ١٩٩٥و١٩٩٦م حينما كُشف عن فنار الإسكندرية والحي الملكي تحت مياه الميناء الشرقي على التوالي، فجاء قرار المجلس الأعلى للآثار بإنشاء الإدارة في عام ١٩٩٦. وتشكلت الإدارة من مجموعة من الأثريين محترفي الغوص من خريجي كليات وأقسام الآثار بكل التخصصات المصرية واليونانية والرومانية والقبطية والإسلامية. ثم توالَتْ الاكتشافات الأثرية تحت مياه بحر الإسكندرية بواسطة البعثات المصرية والفرنسية.

ومن أهم المواقع التي تمَّ العمل بها مواقع المدن الغارقة وتتمثَّل في منطقة شرق كانوب ومدينة هيراكليون. قد سجَّل أحد طياري السلاح الملكي البريطاني عام ١٩٣٣م ملاحظته عن تكوينات ضخمة على شكل حدوة حصان تغطي مساحاتٍ واسعةً من قاع خليج «أبو قير»، وهو خليج بحري يقع شرق الحدود الإقليمية لمحافظة الإسكندرية. فقام الأمير عمر طوسون بالتعاون مع الصيادين والغواصين بتحديد المواقع الأثرية فيه، واستطاعوا انتشال رأس تمثال من الرخام الأبيض للإسكندر الأكبر. وفي عام ١٩٨٥م، عثر فريق

فرنسي بمساعدة كامل أبو السعادات على حطام سفن غارقة من أسطول نابليون بونابرت، وقاموا بانتشال أسلحة وذخائر خاصة بالحملة الفرنسية على الشرق، أهمها موقع سفينة القيادة أورينت وموقع السفينة لاسريوس وموقع السفينة لاجورييه. كما تم الكشف عن بعض المدن الغارقة مثل مدينة هيراكليون التي تقع شمال شرق شاطئ «أبو قير»، ومدينة كانوب حيث اكتُشفت أطلال معبد وأجزاء تماثيل آلهة مصرية من العصرين البطلمي والروماني.

ويقع الميناء الشرقي في المنطقة ما بين رأس السلسلة شرقًا وقلعة قايتباي غربًا، وكان الحي الملكي في العصر البطلمي يقع في منطقة الميناء الشرقي. وبدأ الاهتمام بالموقع من الناحية الأثرية عام ١٩٦١م عندما اكتشف به كامل أبو السعادات تمثالاً ضخمًا لسيدة ترتدي الزِّي المميز للإلهة إيزيس وقطعًا أثرية أخرى، كما ظهرت بهذه المنطقة أرصفة حجرية. وفي عام ١٩٩٢م قامت بعثة المعهد الأوروبي للآثار الغارقة بعمل مسح طبوغرافي للميناء الشرقي أسفر عن اكتشاف جزيرة أنتيرودوس واللسان المعروف بشبه جزيرة التيمونيوم، حيث عُثر على بقايا مبانٍ من المرجح أن تكون لمسرح ومعبد الإله بوسيدون. كما كشفَتْ البعثة عن عناصر أثرية ومعمارية مختلفة مثل تماثيل «أبو الهول»، وحطام سفينة غارقة ترجع إلى العصر الروماني.

وفي عام ١٩٦٢م، عمل كامل أبو السعادات بالاشتراك مع القوات البحرية المصرية على انتشال قَطَع أثرية من موقع قلعة قايتباي، الذي يقع عند حد جزيرة فاروس الشرقي في مواجهة قلعة قايتباي من الجهة الشرقية.

وبداية من عام ١٩٩٤م، عمل مركز الدراسات السكندرية في هذا الموقع، حيث عثر على الآثار التي أحاطت بعمود السواري وأُلقيت في الميناء عام ١١٧٦م في عهد صلاح الدين الأيوبي لتعيق الغزو الصليبي القادم من قبرص. كما يحوي الموقع ما أسقطه الزلزال من الفنار وجزيرته حيث تصطف بقاياه التي تزيد على ٢٠ طنًّا في خط واحد يتجه إلى الشمال. وعثُر في هذا الموقع على أكثر من ٣٠٠٠ قطعة أثرية معمارية من الجرانيت الوردي، والجرانيت الرمادي، والرخام الأبيض، والرخام الأسود ذي العروق البيضاء، والبازلت، والكوارتزيت. ومن ضمن القطع الأثرية الضخمة التي وُجدت في الموقع ٧ تماثيل لـ «أبو الهول». كما عُثرَ على حطام ثلاث سفن ترجع إلى ما بين القرنين الثالث ق.م. والسابع الميلادي.

وتتمثَّل أهمية موقع الشاطبي - الذي يمتد من السلسلة أمام مكتبة الإسكندرية حاليًا إلى موقع الإبراهيمية - وهي لقربه لما يُعرف برأس لوخياس في العصر البطلمي، وهو الحي الشرقي لمنطقة الحي الملكي؛ لذلك فقد

كان من المتوقّع العثور فيه على بقايا أجزاء من القصور الملكية أو المعابد التي ذكرت المصادر وجودها في هذه المنطقة. وعندما بدأ المعهد الهلليني العمل بهذا الموقع عام ١٩٩٨م، عثر على قطع حول لسان السلسلة من جهة الشرق من المرجح أن تكون بقايا معبد إيزيس، أو قصر الملكة كليوباترا السابعة. كما كشفت البعثة عن بقايا فخارية معظمها لأوانٍ فخاريَّة على طراز الأمفورات تعود إلى العصر الروماني المتأخر.

وموقع المعمورة عبارة عن خليجٍ مفتوحٍ مُحَاط بالعديد من الجزر وهو الخليج البحري الواقع إلى الشرق بين الخليج المكوَّن لحدائق المنتزه وإلى الغرب من خليج «أبو قير». وتعمل بعثة الآثار الغارقة المصرية في هذا الموقع منذ عام ١٩٩٩م. وقد أسفرت أعمال المسح والتنقيب عن العثور على كسرات فخارية وبعض الأمفورات مختلفة الطرز، وهو ما يرجِّح ارتباطها بحطام سُفن غارقة. فقد عُثر على بقايا سفينة رومانية غارقة في وسط الخليج ما تزال تظهر منها بعض العناصر الأثرية في القاع إلى الآن، وأحواض مستقيمة الأضلاع، منحوتة في الصخر، يرجَّح أنها كانت تُستخدم في تربية الأسماك. كما ظهرت أجزاء من أرصفة غارقة لميناء صغير. وعُثر أيضًا على بقايا محجَر قديم لاستخراج الحجر الجيري أصفر اللون، الذي كان يُستخدم في بناء الأرصفة والأحواض القديمة الموجودة في الخليج التي ترجع إلى العصر الروماني.

وتم اكتشاف مدينة هراكليون التي شُيِّدت في العصر البطلمي (٣٢٠ ٣٠ ق.م). والبطالمة هم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم نسبة إلى الإله هرقل. وما تم اكتشافه من المدينة الغارقة هو مساحة تقدَّر بـ ١٠٠٠ في ٨٠٠ متر من مساحتها. وتشتمل على معبد ضخم للإله هرقل آمون؛ فالبطالمة أنشأوا معبدًا للإله آمون، ولكن بصورة بطلمية. إن أهمية اكتشاف هذه المدينة يرجع إلى مجموعة التماثيل التي تم العثور عليها داخل معبد المدينة، ومن بينها تمثال كامل من الجرانيت يبلغ ارتفاعه ٥.٥ متر للإله حابي، كما تم العصور على تمثال للإلهة إيزيس ورأس تمثال من الجرانيت وتمثال لملكة غير معروفة الاسم.

كما تم الكشف عن مجموعة من أدوات الاستخدام اليومي كالأواني والقدور ومجموعة من الحلي الذهبية، وخواتم وسلاسل وعملات ذهبية مهمة وبعضها عبارة عن عملات فينيقية نادرة من الصعب العثور عليها، والعملات الأخرى بطلمية، بالإضافة إلى العثور على لوحتين حجريتين، الأولى طولها ٦.١ متر، والثانية لوحة تُشبِه لوحة بالمتحف المصري من الأسرة الثلاثين بها نَصٌّ يتضمن تخصيص جزء من المال كضرائب لصالح معبد الإله هرقل. وكانت البعثة الفرنسية المصرية - التي تعمل في البحث عن الآثار الغارقة بدأت

اكتشافاتها بمجموعة من أسطول نابليون عام ١٩٩٦م، بينما كان من اكتشافاتهم العثور على مدينة «مينوثيس» في قاع البحر المتوسط على مساحة كيلو مترين من شاطئ مدينة «أبو قير» أيضًا.

وتم العثور بالقرب من الميناء على لوحة رائعة من الجرانيت الأسود يبلغ ارتفاعها ١٩٠ سم وسليمة تمامًا. وهي نسخة كاملة من لوحة نقراطيس الشهيرة التي عُثرَ عليها عام ١٨٩٩، والمحفوظة حاليًا بالمتحف المصري. ولوحة نقراطيس تشير إلى قرار الفرعون نختنبو الأول (٣٧٨ ٣٦٣ ق.م) بأن تؤول نسبة العُشر من الضرائب المفروضة على أنشطة وتجارة الإغريق إلى خزانة معبد الإلهة نيت. ولا تختلف نقوش لوحة هيراكليون عن سابقتها إلا في نقطة واحدة، وهي التي تلزم بوضع اللوحة في المدينة المسماة نقراطيس، في حين أنها وُضعَت في مدخل بحر الإغريق في المدينة المسماة «ثونيس». ولقد كانت «ثونيس - هيراكيلون» تبعًا لهيرودوت ميناء الدخول الإجباري لمصر لكل السفن الأجنبية منذ عصر الدولة الحديثة.

أما عن التماثيل، فقد نجحت البعثة في استخراج ثلاثة تماثيل كانت مغطاة بالحشف البحري، وذلك بالقرب من بعض الجدران الكبيرة بالمكان. وهي تماثيل ضخمة كاملة من حجر الجرانيت الوردي ويزيد ارتفاعها على خمسة أمتار. وتمثل هذه التماثيل أحد الفراعنة، والآخر لملكة، أما الثالث فهو حالة نادرة من نوعها حيث يمثل المعبود حابي إله النيل والفيضان. كما عثر على ناووس ضخم من قطعة واحدة من حجر الجرانيت الوردي يرجع للعصر البطلمي بالقرب من هذه التماثيل. وبعد دراسة سريعة للناووس، فإن النقوش عليه تذكر آمون جرب، وهو صورة المعبود آمون في هيراكليون، ذلك المعبود الأعلى الذي يعطي الفرعون الوضع القانوني الذي أسّس عليه سلطانه على الأراضي المصرية.

كما أسفرت الحفائر في موقع المعبد عن قطع أثرية عديدة عُثر عليها في حالة جيدة وجميعها سابقة للقرن الأول ق.م.، ولأول مرة يتم عمل مجسات بطريقة منظمة ودراسة علمية للطبقات المتعاقبة في قاع البحر بواسطة الفريق المصري الذي شارك البعثة أعمال الحفر. وهذه الاكتشافات بما فيها اللوحات والتماثيل الكبيرة هي امتداد تاريخي للمدينة إلى العصر الفرعوني خصوصًا العصر المتأخر.

وما تزال الحفائر تحت البحر الأبيض المتوسط تمدُّنا بالكثير من الآثار المصرية المدهشة التي ستستمر في إبهار العالم كله إلى أبد الأبدين. وتُعتبَر آثار مصر الغارقة هي مستقبل الآثار الواعدة في مصر في الفترة القادمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(٦)
مقابر بناة الأهرام

تُعَدُّ مقابر بناة الأهرام الموجودة في هضبة الجيزة من بين أهم اكتشافات الدكتور زاهي حواس، وهي المقابر الخاصة بالعمال والفنانين الذين شيدوا أهرام مصر الخالدة على مَر الزمان وأثبتوا للعالم أجمع أن المصريين هم «بناة الأهرام» ولا أحد غيرهم كما زعم البعض كذبًا وبهتانًا. وأثبتت هذه الاكتشافات أيضًا أن الأهرام المصرية شُيدت بالحب والعقيدة الراسخة لا بالسخرة، وبناها حوالي عشرة ألف عامل وليس مائة ألف كما زعم أبو التاريخ «هيرودوت»، وأوضحت كيف كان الهرم هو المشروع القومي الذي بنى مصر؛ إذ كانت تسهم في بنائه الأسر الكبيرة في صعيد مصر ودلتاها بإرسال شباب العمال طاعة وولاء للملك، فضلاً عن الإمداد بالطعام والخبز والجعة في سبيل إنجازه.

وأذهل بناء الهرم الجميع بإعجازه الهندسي والفلكي والمعماري الذي لا يُقارَن، وكشف عن نظام إداري جبار تمكَّن من تنظيم العمل لهذا البناء المعجز بكل عناصره وتكويناته المعمارية العديدة. وكما أكَّد الدكتور حواس، في أكثر من دراسة له، أن الذي يؤثر في الناس في العالم أجمع، هو كيفية بناء هذا الهرم الضخم، بينما يرى أن المعجزة - وإن كانت تكمن في بناء الهرم المذهل بكل المقاييس - فإنها تكمن في الإعجاز الإداري في تحقيق وتنظيم العمل داخل منطقة العمل على فترة طويلة، وبين عدد كبير من العمال والفنانين والإداريين منذ أكثر من ٤٦٠٠ عام.

الحكاية وراء مقابر بناة الأهرام

جاءت البداية الحقيقية للكشف عن هذا الاكتشاف المهم - بعد بحثٍ مضنٍ قاسٍ في المواقع المحتملة في هضبة الجيزة بحثًا عن مقابر «بناة الأهرام» - في ظهيرة أحد أيام أغسطس عام ١٩٩٠م، وحينها كان الجو حارًا للغاية، وكان الدكتور حواس يجلس وحيدًا في مكتبه المجاور لهرم خوفو مباشرة، فجاءه شيخ خفراء منطقة الهرم الشيخ «محمد عبد الرازق» آنذاك، يخبره بأن سائحة أمريكية سقطت من فوق صهوة جوادها حين اصطدمت قدمه بجدار من الطوب اللَّبِن على بُعد عشرة أمتار فقط من موقع الحفائر التي يجريها للبحث عن مقابر «بناة الأهرام»، فتوجَّه إلى الموقع على التو، وعندما شاهد الموقع، قال على الفور: «هذه هي مقابر العمال بناة الأهرام».

وفي السنوات التالية، قام فريق عمل مصري على أعلى مستوى من خيرة الشباب المتخصصين تحت رئاسة الدكتور حواس بالكشف عن عدة

اكتشافات أثرية مهمة غيَّرت من خريطة منطقة الجيزة تمامًا. وأهم هذه الاكتشافات هي كشف مقابر «بناة الأهرام».

أهم اكتشافات مقابر بناة الأهرام

تحمل اكتشافات مقابر بناة الأهرام عددًا من المفاجآت، من بينها نَص اللعنة الذي نقش في مقبرة رئيس العمال الفنان بتتي لحماية مقبرته، ونقش نص آخر خاص بزوجته: نس سوكر، يقول: «أيها الأحياء أجمعين، الداخلون إلى هذا القبر، المعتدون على هذا القبر بتشويهه، التمساح عليكم في الماء، الثعابين عليكم في الأرض، وأفراس النهر عليكم في الماء، والعقارب عليكم في الأرض.»

وقام عالم الآثار الأمريكي الدكتور مارك لينر باستكمال الكشف في منطقة الجبل القبلي والذي يخص حياة العمال الذين اكتشف الدكتور حواس مقابرهم، وأعني منطقة الإدارة الخاصة بالعمال ومنها المخابز ومناطق تجفيف الأسماك وصهر المعادن وصناعة الجعة، بالإضافة إلى الأماكن التي عاش فيها هؤلاء العمال وغيرها.

بينما كان الفنانون والصنَّاع والنحَّاتون يعملون طوال العام تحت إمرة الملك، إضافة إلى أنه كان يُؤتى بالفلاحين من القرى المجاورة والأقاليم ليعملوا بنظام التناوب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٧)
خبيئة معبد الأقصر

معبد الأقصر هو المعبد الذي يعكس قيمة السحر والجمال والغموض وعُمق الديانة المصرية في عصر الدولة الحديثة أو عصر الإمبراطورية المصرية القديمة، وهو واحد أهم وأكبر وأشهر المعابد المصرية القديمة على الضفة الشرقية لنهر النيل في مدينة الحالية أو مدينة طيبة القديمة. والذي تأسَّس سنة ١٤٠٠ قبل الميلاد لعبادة الإله آمون رع وزوجته الإلهة موت وابنهما الإله خونسو؛ أو ما نطلق عليه الثالوث الطيبي (أو ثالوث طيبة).

تم تشييد معبد الأقصر في عهد ملوك الأسرة الثامنة عشر، والأسرة التاسعة عشر. وأهم المباني بالمعبد هي التي شيَّدَها الملك أمنحتب الثالث (١٣٩٧ - ١٣٦٠ ق.م.) والملك رمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٣ ق.م.) (الذي أضاف إلى المعبد الفناء المفتوح والصرح والمسلتين). كما أقام الملك تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م.) مقاصير لزوار ثالوث طيبة المقدس، وقام الملك توت عنخ آمون (١٣٤٨ - ١٣٣٧ ق.م.) باستكمال نقوش جدرانه. وقد دمرت المقصورة الثلاثية التي كانت قد شُيِّدَت من قبل في عهد الملكة حتشبسوت والملك تحتمس الثالث (من الأسرة الثامنة عشرة)؛ ثم أعيد بناؤها في عهد الملك رمسيس الثاني. سُمِّي المعبد أيضًا «إيبت رسيت» (وتعني الحرم الجنوبي أو المكان الخاص بآمون رع). وهو من أفضل المعابد المصرية حفظًا وأجملها بناء، وفيه يتجلى تخطيط المعبد المصري أوضح ما يكون.

تفاصيل الاكتشاف

يعد اكتشاف خبيئة معبد الأقصر من أهم الاكتشافات التي حدثت في منطقة طيبة عام ١٩٨٩م، وتحديدًا في صباح الثاني والعشرين من شهر يناير عام ١٩٨٩، والذي تم عن طريق الصدفة حيث تم العثور على مجموعة من التماثيل الفرعونية الفريدة لبعض الآلهة والملوك التي ترجع إلى الدولة الحديثة.

و»الخبيئة» هي المكان الذي كان يقوم المصري القديم باستخدامه لإخفاء مقتنياته الهامة، وإنقاذ آثاره من الانتهاكات والتدنيس والسرقة، وكان المصري القديم يتفنن في إخفائها بعيدًا عن أعين اللصوص. ولا نعلم شيئًا عن الاحتفالات التي كانت تصاحب عملية إيداع الآثار في تلك الخبيئة في مصر القديمة. ولا يوجد لدينا نَصٌّ طقسي إلى الآن يتناول هذا الأمر. وربما كانت الإجراءات المتبعة في هذه الحالة تشبه طقوس الدفن المقدسة. وكانت كل آثار الخبيئة، ملكية أو غير ملكية، بمثابة قرابين نذرية مقدمة كهدايا إلى الإله

سيد المعبد وموضوعة في الفضاء المقدس للمعابد. ومن الجدير بالذِّكر أن أغلب الخبايا الأثرية المهمة اُكتشفَت في مدينة الأقصر العريقة؛ لأن الأقصر، أو مدينة «واست» أي «الصولجان»، أو «طيبة القديمة»، كانت العاصمة الدينية العريقة، وبيت رب الأرباب المعبود الشهير «آمون رع» الذي شُيدت وكُرست المعابد من أجله، مثل معابد الكرنك والأقصر والدير البحري ومعبد مدينة هابو ومعبد الرامسيوم وغيرها الكثير.

وتبدأ قصة الاكتشاف حين قام العالم الجليل الدكتور محمد الصغير، مدير عام آثار مصر العليا حينها ومكتشف الخبيئة، ببعض الاختبارات لتقوية وتنظيف وتسوية أرضية فناء الملك أمنحتب الثالث (١٤٠٥ - ١٣٧٠ ق.م.) بالمعبد والذي كان مخصَّصًا أغلب الظن للاحتفالات الدينية التي كانت تشارك فيها فئات الشعب المختلفة، وذلك بعد أن لاحظ مَيْل بعض الأساطين، وهي عبارة عن صفين من الأساطين، شُكِّلت على هيئة حزم سيقان البردي، ومجموعها ٦٤ أسطوانًا. وكان الريس فاروق شارد، أحد أقدم عُمَّال الحفائر الذين رافقوا البعثات الأجنبية في التنقيب عن الآثار في محافظات الصعيد، ويعمل مع البعثة المصرية الخاصة بالدكتور الصغير في تقوية أرضية معبد الأقصر. ولاحظ الريس شارد أن لون التربة قد تغيَّر تمامًا. فحفر بها حوالي ٨٠ سم فوجد مع العُمَّال حجرًا من الجرانيت الوردي، فقام بمناداة الأثريين الذين سخروا منه. وقالوا إنه مجرد حجر. وغادروا الموقع؛ لأن الحجر ليس له قيمة بالنسبة لهم، فقام بالاتصال برئيس البعثة الدكتور محمد الصغير شخصيًّا، فجاء إلى الموقع على وجه السرعة. وشرح له الموقف وقال له إنه يريد ١٥ عاملاً فقط، ويريد رفع الحجر الثقيل. فقال له الدكتور محمد الصغير: «مَن أمركَ بالحفر هنا؟! أردم هذه الحفرة حالاً.» فتم الردم. فقال له: «نريد أن نخرج الحجر، ربما يكون هناك شيء.» فاقتنع بكلامه على مضض. فقامت بربط الحجر بالحبال، ورفعه بمساعدة الحراس بالمعبد والعمال حتى السياح شاركوا في الرفع. فقال د. محمد الصغير: «إنَّ هذا الحجر هو قاعدة لتمثال.» فنزل مكان الحجر للحفر، فوجد جزءًا من يد تمسك علامة عنخ أو علامة الحياة بيدها، فحفر وحفر، فتم الكشف عن التمثال كاملاً. وكان للملك أمنحتب الثالث. أول تماثيل الخبيئة. وكان منحوتًا من الجرانيت الوردي بارع الجمال. ووجد بجواره ثلاثة تماثيل أخرى. وعندما رآها د. محمد الصغير قال: «إن هذه خبيئة.» وقام بإبلاغ قيادة هيئة الآثار المصرية في القاهرة. وتم تشكيل لجنة كبيرة. وتم عمل حفائر بمشاركة ٢٠٠ عامل على عمق أربعة أمتار. ولم يتم العثور على شيءٍ. وبعد ذلك، قام بإعطاء الأمر لأحد العمال بالنزول في الحفرة ذات الأربعة أمتار. وقال له: «أريدك أن تحفر بفأسك وتأتي لي بعيِّنة من التربة في آخر محاولة سنقوم بها.» فقام بالحفر. وكان أول ضربة فأس من العامل في التمثال سمع مع العمال صوت الضرب

والاحتكاك. فقال للعامل: «انتظر.» فنزل إلى الحفرة، فقام بإزاحة التراب، فوجد تمثالاً من المرمر بطول حوالي ٧٥سم، فنظف أكثر وأكثر بتلهُّف شديد، فقام بكشف بداية الخبيئة التي تشبه بئر الساقية المحفور في الأرض الصلبة، فقام بتحديده، فوجدَ بعض التماثيل الكبيرة المكدسة فوق بعضها. فقام بالاتصال بالدكتور محمد الصغير. وتم الكشف عن حوالي عشرين تمثالاً في تلك الخبيئة المهمة التي تعرض في متحف الأقصر حاليًا. وتوفى الريس فاروق شارد منذ فترة عن عمر تجاوز الستين عامًا، بقريته «القلعة» التابعة لمركز قفط بمحافظة قنا.

وكان قد تمَّ العثور على قاعدة لتمثالين على عمق حوالي ٨٠ سم في أرضية فناء أمنحتب الثالث مختلفي الحجم ومصورة بالحجم الطبيعي، وفي حالة حفظ جيدة، ومصنوعة من الديوريت، ونُقش على القاعدة رسم صاحب التمثال «نب - ماعت - رع أمنحتب - حقا واست» (أمنحتب الثالث)، مما دعا إلى القيام بحفائر في تلك المنطقة. وكان من بين أهم نتائج البعثة أن عثر على مجموعة من التماثيل أهمها:

- تمثال للإله آتوم (إله هليوبوليس) والملك حور محب على قاعدة واحدة، مصنوع من الديوريت، وهو تمثال فريد في الفن المصري القديم. وصُور الملك حور محب جاثيًا مقدمًا إناءين يُعرَفان بـ «نو» للإله آتوم، ومرتديًا النمس والصل الملكي، واللحية الملكية المستعارة. وصُور الإله آتوم في هيئة بشرية جالسًا على كرسي العرش، مرتديًا التاج المزدوج، واللحية الإلهية المستعارة، وممسكًا في اليد اليسرى علامة الحياة «عنخ» الموضوعة على فخذه. وزُيِّنَ كرسي العرش بمناظر تمثِّل إلهي النيل وربط نبات البردي (رمز الشمال) ونبات اللوتس (رمز الجنوب) (للدلالة على وحدة أرضي مصر السفلى والعليا).

- تمثال الملك أمنحتب الثالث، مصنوعٌ من الكوارتزيت، ارتفاعُه حوالي ٢.٥ م، وصُوِّر الملك واقفًا على قاعدة تشبه الزحافة، ومرتديًا التاج المزدوج، واللحية الملكية المستعارة، وممسكًا علامة «مكس» في يديه.

- تمثال للإلهة حتحور، ويعود إلى عهد الملك أمنحتب الثالث، ومصنوع من حجر الديوريت، وارتفاعه حوالي ١٧٠سم. وصُوِّرت الإلهة في هيئة إنسانية، جالسة على كرسي العرش، وممسكة في اليد اليمنى علامة الحياة «عنخ» الموضوعة على فخذها، ومرتدية التاج المميز لها الذي هو عبارة عن قرص شمس بين قرني بقرة.

- تمثال للإلهة أيونيت، ممثَّلة في هيئة بشرية بالشَّعر المستعار الذي يصل إلى الصدر، وتمسك بيدها اليمنى علامة الحياة «عنخ» الموضوعة على فخذها،

وتكون مع الإلهة ثننت والإله مونتو ثالوث مدينة أرمنت المقدس.

- تمثال على هيئة «أبو الهول»، مصنوع من المرمر، ويرجع إلى عهد الملك توت عنخ آمون، ويرتدي الملك تاج الوجهين البحري والقبلي.

- تمثال للإله «كا - موت - إف» على هيئة ثعبان الكوبرا، وارتفاعه حوالي ١٤٠سم، ومصنوع من حجر الجرانيت، ويرجع إلى عهد الملك الكوشي طاهرقا.

وقد زاد عدد التماثيل التي عُثر عليها في خبيئة معبد الأقصر عن العشرين تمثالاً أو أكثر قليلاً بجانب بعض الأواني التي ترجع إلى العصر المتأخر.

وكان لذلك الاكتشاف صدى إعلامي واسع في كل أنحاء العالم. وأُجري عنه الكثير من المقابلات الإعلامية ونشر عنه العديد من المقالات في المجلات الأجنبية، ومنها مجلة «لوفيجارو» الفرنسية الشهيرة. وبعد مرور أكثر من ٣٠ عامًا على اكتشاف خبيئة معبد الأقصر بفناء الاحتفالات بمعبد الأقصر فإن هذا الكشف يُعتبَر من أجمل الاكتشافات الأثرية التي أمدتنا بعدد كبير من روائع فن النحت المصري القديم. والتماثيل التي عُثر عليها في تلك الخبيئة تعد من أجمل وأروع ما أنتجه الفنان المصري القديم؛ إذ أنها تتميز بتماثيل ذات حالة جيدة جدًّا من الحفظ، ولم تؤثر فيها عوامل الزمن، وظلت محتفظة بجمالها العظيم ورونقها المميز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٨)

منطقة تلال حبوة

في ٢٠ إبريل ١٩٨١ تمكنت بعثة الآثار المصرية برئاسة الأثري الكبير الدكتور محمد عبد المقصود من اكتشاف أحد أهم المواقع الأثرية والمعروف بـ «تل حبوة»، والذي يقع ناحية الشمال الشرقي من مدينة القنطرة شرق على مسافة ٥ كم، وعلى مسافة ٣ كم شرق قناة السويس. وبدأت مواسم الحفر منذ عام ١٩٨٥م، وما زالت مستمرة إلى الآن.

وقد تم إجراء الحفائر في أربعة مواقع حبوة (١ - ٢ - ٣ - ٤)، وهذه المواقع الأربعة لمنطقة حبوة تقع على ضفتي فرع النيل البيلوزي الذي كان يمر بالمنطقة قديمًا مُتصلاً بالبحر المتوسط شمال موقع حبوة ١.

وقد توصَّلَت البعثة المصرية الفرنسية المشتركة في عام (١٩٩٠ - ١٩٩١م) من اكتشاف وتحديد مسار الفرع البيلوزي للنيل بالمنطقة وإجراء المسح الأثري لمواقع آثار تلال حبوة (٢ - ٣ - ٤) وحول منطقة آثار حبوة ١، والتي تقع إلى الجنوب الشرقي وإلى الجنوب من موقع «تل حبوة ١». وقد قامت البعثة بإعطاء أرقام لكل موقع في منطقة تلال حبوة والتي تبلغ مساحتها ١١٥٠ فدانًا تشمل المواقع الأربعة.

مراحل الحفر والتنقيب

تل حبوة ١

بدأت أعمال الحفر في موقع «تل حبوة ١»، وقد أسفرت مواسم الحفر بالموقع عن الكشف عن أسوار مدينة ضخمة محصنة مبنية من الطوب اللبن بمساحة ٦٥٠ مترًا طول × ٣٥٠ مترًا عرض، وهذه الأسوار مبنية بالطوب اللَّبِن سُمكها يتراوح ما بين ٤ أمتار إلى ٧ أمتار في كل من الجهتين الشمالية والغربية، بينما بلغ سُمك الأسوار الجنوبية ٢٢مترًا. وتم تحديد مدخلين للمدينة يقع أحدهما في منتصف السور الغربي في اتجاه الدلتا، ومدخل آخر يُفتَح في منتصف السور الشرقي، ويؤدي إلى موقع «تل حبوة ٢» ومجرى الفرع البيلوزي للنيل، والذي كان يصب في البحر المتوسط مباشرة.

وباستمرار أعمال البعثة بالموقع تمكنت من الكشف عن قلعة ثانية أقدم من القلعة الأولى، وتقع في الجهة الشمالية الشرقية من الموقع، وتمَّ الكشف عن مسافة ٣٠٠ متر من السور الشمالي لهذه القلعة، وكذلك ١٥٠ مترًا من السور الغربي، وقد بُنيَتْ من الطوب اللبن، بسُمك أربعة أمتار ومدعمة بأبراج

مستطيلة. ويُمكن تحديد أن هذه القلعة وهي الأقدم. وقد بُنيَت في عصر الأسرة الثامنة عشرة من عهد الملك تحتمس الثالث وشَهِدت توسعًا في عصر الأسرة التاسعة عشرة من عهد الملك سيتي الأول. كما أن موقع «تل حبوة ١» اُستخدم في عصر الانتقال الثاني كأحد المواقع المهمة لحماية العاصمة «أفاريس» بتل الضبعة بالشرقية، والتي تقع جنوب غرب منطقة حبوة على مسافة ٥٠ كيلو مترًا، وكان يربطها بموقع «تل حبوة» طريق مائي هو الفرع البيلوزي للنيل. وقد ورد في بردية «رِيند» الرياضية بالمتحف البريطاني أن الأمير الجنوبي، والمقصود به الملك أحمس الأول، قد هاجم مدينة «ثارو» واستولى عليها قبل حصار «أفاريس»، الأمر الذي يوضِّح أهمية منطقة «تل حبوة» في نهاية عصر الانتقال الثاني كقاعدةٍ مهِمَّةٍ للهكسوس لحماية المدخل الشرقي للعاصمة «أفاريس».

وخلال مواسم الحفر التي استمرت في موقع «تل حبوة ١» تم الكشف عن أقدم طبقة أثرية بالموقع، والتي ترجع لعصر الدولة الوسطى، والتي تمثلت في الكشف عن قطع عديدة من الفخار ونقوش لكتف باب وختم أسطواني وجزء من إناء من الجرانيت من عهد الملك سنوسرت الثاني. وربما تؤكد تلك الاكتشافات وجود أسوار الوالي بالمكان، وهي سلسلة الحصون والقلاع التي أقيمت في عصر الدولة الوسطى للدفاع عن الحدود الشرقية. كما ظهرت طبقة أثرية مهمة تغطي مساحة كبيرة ترجع لعصر الانتقال الثاني، وتنوعت الاكتشافات بخصوص تلك الفترة بين آثار منقولة ومبانٍ معمارية ونقوش ولوحات حجرية من عصر الملك نحسي، وبقايا دفنات ومقابر آدمية وحيوانية، بالإضافة إلى الكشف عن خبيئة مدفونة بداخل السور الغربي. وتشتمل على لوحة وتمثال لمعبود بالحجم الطبيعي غير واضح المعالم، وتمثال آخر لشخص جالس ومنقوش عليه اسم مدينة «ثارو»، والذي يعتبر أقدم ظهور لاسم المدينة بالمقارنة بالاكتشافات الأخرى، وتشير الاحتمالات أن المدينة كانت أيضًا مُحصَّنة أثناء فترة الهكسوس.

واستمرت الاكتشافات بموقع «تل حبوة ١» وأسفرت عن الكشف عن معالم واضحة لبقايا الاستخدام الأهم بالنسبة للموقع من عصر الأسرة الثامنة عشرة، وكذلك الأسرة التاسعة عشرة من عصر الدولة الحديثة، وظلَّ الموقع مُستخدَمًا بكثافة إلى عصر الأسرة السادسة والعشرين.

وقد كشفت بعثة الحفائر المصرية بموقع «تل حبوة ١» في الناحية الشمالية عن مبانٍ إدارية ومخازن وصوامع للغلال، وبقايا قصر من عصر الدولة الحديثة في الركن الشمالي الغربي للمدينة، وكذلك بقايا مقابر من نهاية عصر الانتقال الثاني معظمها مدفونٌ في أرضية صوامع الغلال، وكذلك تم الكشف عن بقايا هيكل حصان من نهاية عصر الانتقال الثاني. وكشفت الحفائر في

الركن الجنوبي الغربي من المدينة المحصنة بـ «تل حبوة ١» عن بقايا معبد من عصر الأسرة السادسة والعشرين، وكذلك قصر احتفالي، بالإضافة إلى مبنى من الطوب اللَّبِن مكون من عدة غرف أُستخدَم لخدمة المعبد، وهذه المجموعة من المباني يحتويها سورٌ دينيٌّ يبلغ سمكه نحو ١١م ولم يتبقَّ منه سوى الضلعان الغربي والجنوبي. وقد بُنيت هذه المباني على أنقاض معبد أقدم من عصر الدولة الحديثة، وتحديدًا من عصر الأسرة الثامنة عشرة، وظلَّ مُستخدَمًا حتى عهد الملك رمسيس الثاني من عصر الأسرة التاسعة عشرة، حيث تم الكشف عن جزءٍ من عمود مثمن أو يأخذ شكل ثماني الأضلاع عليه ألقاب الملك رمسيس الثاني.

وباستمرار العمل في الركن الجنوبي الغربي تم الكشف عن مبنى إداري بُني من الطوب اللَّبِن ويرجع لأواخر عصر الانتقال الثاني ومدخله من الجهة الشرقية، وقد كُشفَ بداخله عن العديد من المقابر المبنية والمحفورة في أرضية غرف المبنى، بالإضافة إلى دفنات حيوانية، حيث كشفت أعمال الحفائر عن دفنة حيوانية لبقرة في أرضية المبنى. وقد كان المبنى يتكون من طابقين وتم الكشف عن بقايا الدَّرج المؤدي للطابق الثاني. أما الناحية الجنوبية من الموقع فتم الكشف بها عن أسوار المدينة المحصَّنة، والتي أمكن تحديد خمسة أسوار منها وقد بلغ سُمكها ٢٢ مترًا. وقد بُنيت هذه الأسوار متلاصقة بجوار بعضها البعض، وأقدمُها ربما يرجع لعصر الدولة الوسطى مرورًا بعصر الانتقال الثاني. وأحدث هذه الأسوار من عصر الدولة الحديثة وقد شُيِّد على مرحلتين من الطوب اللبن ومدعم بأبراج مستطيلة.

وقد بُنيت هذه الأسوار من الطوب اللَّبِن في عدة فترات تاريخية؛ إذ أن بعض هذه الأسوار قد استُخدِمَ للدفن بعد أن انتفى الغرض منها كأسوار. ويبدو أن ضخامة سُمك هذه الأسوار ربما يرجع لأن هذه الأسوار الجنوبية تقع على مجرى الفرع البيلوزي للنيل، وربما كانت تُشكِّل أيضًا حاجزًا لمياه فيضان النيل؛ إذ لوحظَ وجود آثار انهيارات وتهدُّم في الركن الجنوبي الغربي لهذه الأسوار من الخارج، وربما يكون ذلك من تأثير فيضان مجرى النيل؛ لأنه لوحظ وجود نفس التأثير في الأسوار في «تل حبوة ٢» في الركن الجنوبي الغربي، وعلى امتداد السور الغربي للمدينة والمواجه أيضًا للفرع البيلوزي للنيل. وقد كشفت الحفائر أيضًا عن بقايا مبنى إداري ربما له علاقة بالميناء الجنوبي للمدينة في عصر الدولة الحديثة؛ إذ أن هذا المبنى يتكون من عدة صالات وغرف تم الكشف فيها عن أوانٍ من الفخار المستورد من فلسطين وقبرص، بالإضافة إلى أصباغ لمواد تلوين أحمر وأصفر وأسود بكميات وفيرة. وقد تم الكشف أمام هذا المبنى على ما يشبه مَرسى متصل بالفرع البيلوزي للنيل.

وقد تمَّ تحديد بقايا أماكن للحريق وأفران ومواقد للنيران خارج الأسوار الجنوبية للمدينة، الأمر الذي يحدِّد موقع الأسوار ليلاً، وهو نفسُ الأمر الذي تكرر الكشف عنه خارج الأسوار الشمالية لمدينة «حبوة ٢»، الأمر الذي يُحتمَل معه أن تكون هذه النيران دليلاً على تحديد مدخل المنطقة ليلاً على ضفتيَّ الفرع البيلوزي للنيل للقادمين من الشمال ناحية البحر عبر بوابة مصر الشرقية في منطقة قلعة «ثارو» بـ «تل حبوة ١».

أما الجهة الشرقية من الموقع فقد تم الكشف عن أسوار المدينة، التي بُنيَت بالطوب اللبن بعرض ٨ أمتار على كتل من الطمي المضاف إليه القواقع بكثافة لتشكل أساسًا متينًا قبل بناء الأسوار بعرض ٢٠ مترًا، وعلى ارتفاع حوالي ٧ أمتار من سطح الأرض. وتم الكشف عن حواجز لمياه النيل والفيضان الذي كان يمر من شرق الموقع. وهذه الحواجز بُنيت من الطمي بدرجة مائلة شديدة الانحدار لتكون كسواتر لحماية الموقع. ويعتبر السور الشرقي من أعلى أسوار المدينة. ويبدو أن هذه الحواجز كانت تمثِّل التحصين الأساسي للمدينة خلال عصر الانتقال الثاني وهو ما يشبه حصن تل اليهودية بدلتا النيل الشرقية.

وبدراسة المباني المعمارية المكتشَفة بـ «تل حبوة ١»، فإنه يمكن تحديد نوعين واضحين من قوالب الطوب اللَّبِن التي أُستخدمت في المباني والمادة المصنوعة منها هذه القوالب، النوع الأول: استخدمت فيها القواقع النيلية والبحرية بكثافة كمادة ماسكة للقوالب بدلاً من التبن أو القش، وتم خلطها بالطين الأسود. وأصبحت هذه القوالب مميَّزة بلونها الأسود الداكن، أما النوع الثاني: عبارة عن قوالب مصنوعة من طفلة طينية ومُضَاف إليها رمال صفراء والقليل من القواقع وهي مميَّزة باللون الأصفر. ومن خلال كثافة القواقع على سطح الموقع، يمكن معه تحديد مسار بعض الجدران على سطح الموقع الأثري.

تل حبوة ٢

بدأت حفائر البعثة المصرية في «تل حبوة ٢» عام ٢٠٠٧، بالكشف عن بقايا أسوار قلعتين من الطوب اللبن: إحداهما ترجع لعصر الدولة الحديثة، بينما الأخرى الأكبر ترجع للعصر الصاوي. والقلعة الأولى: بطول حوالي ٤٠٠ متر وبعرض ٣٠٠ متر. وقد بلغ سُمك هذه الأسوار ١٤ مترًا. وهي ذات مدخلين مدعمين بأبراج على الجانبين أحدهما في السور الشمالي، يفتح ناحية مجرى الفرع البيلوزي وباتجاه موقع «حبوة ١»، والمدخل الآخر في السور الجنوبي، ويؤدي إلى موقع «حبوة ٣»، تجاه الجنوب الشرقي. والأسوار مُدعَّمة بأبراج ضخمة مستطيلة. والقلعة الثانية من عصر الدولة الحديثة، أقل في الحجم من الأولى. وقد تمكَّن فريقُ عمل الحفائر من الكشف عن جزء من السور

الشرقي للقلعة بطول ١٦٥ مترًا، ومُدعَّم بأبراج مُستطيلة. وقد بلغ سُمك هذه الأسوار ٣.٥ م، وربما كان مدخل هذه القلعة يفتح ناحية الشرق.

كما يمكن تحديد موقع المخازن الشرقية والمخازن الغربية والتي بُنيَت بالطوب اللبن، وهي مستطيلة الشكل في شكل صفٍّ واحدٍ، وقد بلغ عدد المخازن الغربية ١١ مخزنًا. وتفتَّح على فناء مستطيل تجاه الشرق وتم الكشف فيها عن بقايا أكتاف ونقوش ترجع لعصر الملك سيتي الأول، ولوحة غير مكتَمِلَة، عليها ألقاب الملك رمسيس الثاني. وبالناحية الشرقية تم الكشف عن نفس العدد بطول ٣٥ مترًا، وبعرض ٣ أمتار. وتفتح على فناء مستطيل تجاه الغرب. وتم الكشف فيها عن عتب باب يحمل اسم الملك سيتي الثاني. وقد ذُكر عليه اسم الملك سيتي الأول تخليدًا لذكراه، بالإضافة إلى الكشف عن ستة مخازن أخرى متعامدة على المجموعة السابقة، وتفتح على فناء مستطيل الشكل ناحية الشمال. وتمثل المخازن المركزية الملكية بالموقع؛ حيث تمَّ العثور فيها على بقايا أختام جصية لأغطية أوانٍ وأمفورات باسم الملكين سيتي الأول ورمسيس الثاني؛ إذ كانت تُختَم الأواني التي كان يتم تصديرها لباقي أنحاء البلاد، وبصفة خاصة منتج النبيذ، حيث كانت المنطقة تشتهر في العصور الفرعونية بزراعة الكروم وإنتاج النبيذ، والذي ذُكرَ في مصادر أثرية متعددة، ولعلَّ أشهرها نقوش مقبرة الملك توت عنخ آمون. وجميع هذه المخازن كانت ذات أرضيات من الطوب اللبن. ومن الواضح من خلال نتائج الحفائر (موسم ٢٠١٤/٢٠١٥) أن هذه المخازن، والتي توجد بالجهة الشرقية، قد بُنيت فوق مجموعة أخرى من المخازن أقدم منها، وترجع لعصر الأسرة الثامنة عشرة؛ إذ تم الكشف عن أختام من الجص لأغطية أمفورات باسم الملكين أمنحتب الثاني وتحتمس الثالث.

وبالإضافة إلى المخازن المكتشفة، تم الكشف في المنطقة الواقعة بين المخازن الشرقية والمخازن الغربية عن موقع مهم لمنطقة القصر الملكي الرئيس، وملحق به مبانٍ دينية. ويمكن أن الموقع اُستخدمَ طوال عصر الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. وتمت عدة إضافات وتغيير في تخطيط المباني. وقد تم الكشف عن بقايا كتل حجرية وأكتاف أبواب تحمل اسم الملك تحتمس الثاني والملك رمسيس الثاني، وتم إعادة استخدامها لبناء مقابر من عصر الأسرة السادسة والعشرين في نفس موقع قصر الملك تحتمس الثاني. بالإضافة إلى لوحة من الحجر الجيري للملك رمسيس الأول واقفًا أمام المعبود «ست سيد أواريس».

وقد أسفرت أعمال الحفائر خلال عدة مواسم عن تحديد أقدم طبقات موقع «حبوة ٢» ببداية عصر الأسرة الثامنة عشرة. والجدير بالذِّكر أن أعمال الحفائر بموقع «تل حبوة ٢» لم تُسجِّل الكشف عن أي آثار من عصر الانتقال

الثاني، سواء لقِطَع أثرية أو طبقات، كما لم يتم الكشف عن أيِّ مبانٍ معمارية، وذلك على النقيض من موقع «تل حبوة ١» والذي ترجع أقدم الطبقات الأثرية فيه إلى عصر الدولة الوسطى وعصر الانتقال الثاني، كما ترجع أحدث طبقات الموقعين «حبوة ١» و«حبوة ٢» لعصر الأسرة السادسة والعشرين، حيث كشفت الحفائر في هذه الطبقات عن مبانٍ وقطع أثرية مهمة تؤكد استمرار استخدام الموقع خلال العصر الصاوي.

وباكتمال الكشف عن مواقع آثار منطقة «حبوة ١ - ٢»، وبالمقارنة بالنقش الشهير للملك سيتي الأول على الجدار الخارجي الشمالي لصالة الأعمدة بمعابد الكرنك بالأقصر، والدراسة التحليلية للمواقع الأثرية الواردة بالنقش والتي قام بها العالم الإنجليزي السير ألان هندرسون جاردنر عام ١٩٢٠م، وبمطابقتها أيضًا ببردية أنستاسي والتي ذكرت طريق حورس والمدن المحصنة عليه، أصبح من الواضح تطابُق موقع منطقة آثار حبوة مع ما جاء بالنقش الذي يحدد مسار فرع النيل البيلوزي، الذي كان يفصل بين شكل أبواب ومخازن مقامة على ضفتي فرع النيل القديم؛ إذ تظهر التماسيح بالمجرى المائي العذب، في حين أن المصدر المائي الآخر الذي يحتوي فقط على أسماك بحرية يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك بأنه يمثل ساحل البحر المتوسط خلال الألف الثاني قبل الميلاد. ووفقًا لهذا النقش، كانت منطقة «ثارو» تتكون من قسمين رئيسين يقعان على جانبيَّ قناة تعج بالتماسيح (الفرع البيلوزي) ومتصلين بجسر. والجزء الذي يقع على يسار القناة محاط من ثلاث جهات بجدار. وإلى اليمين من هذا الجزء توجد بوابة تؤدي إلى فناء كبير حيث يوجد مبنى قائم على الجدار الأيسر له باب إلى الشرق على غرار الأول ونافذة «ظهور أو تجلي». وعلى يمين القناة، هناك بوابتان ضخمتان أخريَان تتماشان مع البوابات السابقة مفتوحة، واحدة على الجسر، والأخرى باتجاه الدلتا. ويبدو أنها تتيح الوصول إلى مساحة بها صفين من المخازن. ويوضِّح هذا التمثيل كلاً من الطابع العسكري لثارو ووظيفة التخزين للمدينة. وقد كان لثارو أهمية استراتيجية حاسمة، كما يتضح من التصوير الفريد على النقش ومدى البقايا المحفوظة على الأرض. وكان لهذه المنطقة وظيفة دفاعية بشكل أساسي ولا شك من بداية من الدولة الوسطى وفي عصر الإمبراطورية خلال الدولة الحديثة، لإغلاق الحدود المصرية وحماية البلاد من أي اختراق شرقي قادم من الطريق على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط.

وأكد الكشف عن مواقع منطقة آثار «حبوة ١ - ٢» بالإضافة إلى الكشف عن مجرى الفرع البيلوزي وبقايا هياكل تماسيح أنه الموقع المطابق لموقع «ثارو» في بداية منطقة طريق حورس بين مصر وفلسطين، ويمكن أن يؤكد أن منطقة طريق حورس كانت تعتبر مدخلاً شرقيًّا لمصر، كما أن الكشف عن

عدة قطع أثرية نُقش عليها اسم مدينة «ثارو» بمنطقة حبوة يؤكد تطابق اكتشاف الموقع جغرافيًا مع ما وردَ في نقش الكرنك الخاص بالملك سيتي الأول، الذي يُعتبَر أقدم خريطة طبوغرافية لمدخل مصر الشرقي وتُمثِّل أهم منظومة عسكرية دفاعية لحماية الحدود المصرية الشرقية.

وبدراسة القطع الأثرية العديدة المُكتشفة بمنطقة آثار حبوة «ثارو» يمكن تحديد عدة نقاط مهمة بالنسبة لنشاط المدينة وموقعها الاستراتيجي المؤثر والمهم على بداية المدخل الشرقي لمصر كمنطقة مهمة ومؤثرة للتحكم في طريق التجارة بين مصر وموانئ البحر المتوسط - كنقطة ومنفذ متقدم للجمارك - والذي كان يلتقي بالفرع البيلوزي للنيل في منطقة آثار حبوة، ويشكل مجرى وميناءً مهمًا يربط بين مصر وموانئ بلاد الشرق الأدنى القديم.

كما أن موقع حبوة «ثارو» كان أيضًا يتحكم في الطريق البري الساحلي الذي كان يربط بين مصر وفلسطين وبلاد الشام، وأمكن تحديد عدد كبير من قطع الفخار المستورد من فلسطين وبلاد الشام وموانئ البحر المتوسط، وبخاصة الفخار القبرصي.

ويمكن أن يحدِّد أن طبيعة المباني المُكتشفة بمنطقة آثار حبوة تبيِّن الأهمية العسكرية للموقع كمدينة مُحصنة مُدعمة بأسوار وخنادق وسواتر وموانع مائية واستحكامات عسكرية وقصور ملكية محصنة ومخازن محصنة بحيث تُشكل واحدة من أهم المواقع والقلاع العسكرية في مصر بالنسبة للمساحة وعمارة التحصينات المكتشفة بالموقع.

كما أن المدينة أيضًا تعتبر نموذجًا فريدًا لتاريخ العمارة العسكرية ضمن منظومة مصر الدفاعية بمنطقة طريق حورس بالمدخل الشرقي لمصر، والتي تتكون من إحدى عشرة قلعة عسكرية وتسعة آبار للتزويد بالمياه، التي أقيمت في الأساس لتزويد الجيوش بالمؤن والعتاد والمياه أثناء الحملات العسكرية خلال عصر الإمبراطورية بالدولة الحديثة. ويوضِّح هذا أهمية المدينة التي كانت نقطة تجمع وانطلاق للقوات العسكرية المصرية المتجهة ناحية الشرق، ومُعسكرًا مهمًّا للجيش المصري في الطريق لمعركة «مجدو» بقيادة الملك تحتمس الثالث، ومعركة «قادش» بقيادة الملك رمسيس الثاني، والذي كشف لهما مؤخرًا عن قصور ملكية بمنطقة «تل حبوة ٢»، كما كان للمنطقة دور مؤثر أيضًا في معارك الملك رمسيس الثالث ضد شعوب البحر.

ويمكن أن نحدِّد من العدد الكبير من الصوامع التي تم الكشف عنها بمنطقة آثار حبوة أن طاقة التخزين لهذه الصوامع كانت ذات استخدام مركزي، حيث بلغت سعتها أكثر من ٢٠٠ طن من الغلال. ويوضح هذا ضخامة عدد جنود

الحملات العسكرية التي كانت تُستخدم الموقع كنقطة انطلاق في اتجاه الشرق.

وتوضح القطع الأثرية المُكتشَفَة في المدينة من عصر الدولة الحديثة وجود نشاط يدل على صناعة النسيج، وصناعة الخمور المشهورة باسم نبيذ «ثارو»، بالإضافة إلى وجود نشاط للصيد، والزراعة، وتصنيع الأسماك المملحة، وكذلك صناعة الأسلحة.

وقد تمت هذه الاكتشافات خلال أكثر من خمسة وعشرين عامًا، وما تزال مستمرة إلى الآن، وبتمويل من مشروع تنمية سيناء، من خلال فريق عمل مصري من المجلس الأعلى للآثار بوزارة السياحة والآثار كان برئاسة عالم الآثار الكبير الدكتور محمد عبد المقصود، وعدد كبير من الآثاريين المصريين من منطقة آثار شمال سيناء، وحوالي ٧٠٠ أثري من المتدربين من جميع مناطق آثار مصر ومن الفنيين والمهندسين وأخصائيي الترميم من كل التخصصات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٩)

مراكب الشمس

في شهر مايو عام ١٩٥٤م، وفي ظل العمل العظيم الذي أنجزه زكريا غنيم في سقارة، اكتشف مصرى آخر اكتشافًا أثريًا مهمًّا، هو مركب الملك خوفو (٢٥٥١ - ٢٥٢٨ ق.م.) جنوب هرمه الأكبر وفى الناحية الشرقية من ضلعه الجنوبي تحديدًا. وأحدث هذا الاكتشاف عاصفة عالمية من الاهتمام أدهشت العالم.

كان المهندس المصري كمال الملاخ يقوم بأعمال التنظيف وإزالة الرديم جنوب الهرم الأكبر، فكشف عن حفرتين لمركبين مغطتين بكتل من الحجر الجيري الجيد. ومن الجدير بالذِّكر أن للهرم الأكبر ثلاث حفرات أخرى في الصخر الطبيعي لهضبة الجيزة تأخذ شكل المراكب في الناحية الشرقية للهرم، تقع اثنتان منها في الناحية الجنوبية والناحية الشمالية للمعبد الجنائزي، بينما تقع الحفرة الثالثة شمال الطريق الصاعد للهرم الأكبر. وجعل ارتباط هذه المراكب بالملك خوفو في منطقة الأهرامات من الآثار المهمة في العالم كله؛ وذلك لأن هرم الملك خوفو واحد من أهم الآثار في العالم؛ ولأنه أيضًا العجيبة الباقية من عجائب الدنيا السبع القديمة.

وفي الحفرة الأولى التي تقع جنوب شرق الهرم الأكبر، عثر كمال الملاخ فوق سطحها على إحدى وأربعين كتلة ضخمة من الحجر الجيري الجيد المستجلب من محاجر طره الملكية. وبداخل هذه الحفرة البالغ طولها حوالي ٣١,٢م، وعرضها ٢,٦م، وعمقها ٣,٥م، عثر على مركب خشبية كبيرة مفككة إلى حوالي ١٢٢٤ قطعة خشبية من خشب الآرز القادم من لبنان موضوعة بعناية فائقة في ١٣ طبقة في أماكنها الأصلية، ومختلفة الأطوال ما بين ٢٣م و١٠سم، علاوة على كميات كبيرة من الحبال والحصير، والمجاذيف الخاصة بها.

وقد تولى ترميم هذه المركب، المرمم المصري العظيم الحاج أحمد يوسف لفترة زمنية طويلة إلى أن أعادها إلى ما كانت عليه أيام الملك خوفو العظيم حتى تم عرض المركب في متحفها الحالي، جنوب الهرم الأكبر، أعلى الحفرة التي تم العثور على المركب فيها. وعادة يتجه زوار منطقة أهرامات الجيزة إلى متحف مركب خوفو كي يشاهدوا هذه المركب التي كانت مركب شمس خاصة بهذا الملك العظيم خوفو. وتعد زيارة هذا المتحف جزءًا أساسيًا في إطار زيارة المنطقة الأثرية بهضبة أهرامات الجيزة.

التصميم الخاص بالمركب

يبلغ طول المركب ٤٣,٤م، وأقصى عرض لها ٥,٩م، وعمقها ١,٧٨م، وارتفاع مقدمتها ذات الشكل البردي ستة أمتار، وارتفاع مؤخرتها سبعة أمتار، ولها عشرة مجاذيف: خمسة على كل جانب تتراوح أطوالها مابين ٦,٥ و٨,٥م، ومقصورة رئيسية تتقدمها مقصورة الربان في مقدمة المركب، والدفة عبارة عن مجذافين كبيرين، وتزن المركب حوالي ٤٥ طنًا. ومن الجدير بالذِّكر أنه لم يُستخدم مسمار معدني واحد في صناعة هذه المركب، فقد استخدم المصري القديم هنا طريقة «العاشق والمعشوق» والحبال في تكوين أجزاء هذه المركب كبيرة الحجم. وسوف يتم نقل المركب الأولى إلى المتحف المصري الكبير أيضًا.

ومن الجدير بالذِّكر أن تم اكتشاف مركب ثانية إلى الغرب من المركب الأولى. ويعمل عليها فريق عمل مصري ياباني وسوف تعرض في مشروع المتحف المصري الكبير. وتم نقل عدد كبير من القطع الخشبية من المركب الثانية والتي يبلغ عددها منذ بدء استخراج أول قطعة خشبية من المركب عام ٢٠١٤ وإلى الآن حوالي ١٠٠٦ قطع، وبعد الانتهاء من أعمال استخراج ونقل كل القطع سيتم تجميعها لإعادة تركيب المركب وإعادة عرضها بجانب مركب خوفو الأولى، داخل مبنى خاص بها والذي تم البدء في إنشاء المبنى المخصص لها. وتم استخراج نحو ١٢٧٢ قطعة خشبية من المركب، وأوشك فريق العمل على الانتهاء من ترميم حوالي ١٢٠٠ قطعة. ويقوم الفريق المصري الياباني بوضع التصور النهائي لتجميع المركب. وقد انتهى فريق العمل من توثيق القطع التي تم رفعها من الحفرة توثيقًا كاملاً بكل الوسائل العلمية الحديثة.

ومن الجدير بالذِّكر أن المراكب عمومًا لا ترتبط باسم الملك خوفو فقط، بل وُجدَت حفر المركب وبعض من أجزائها منذ عهد بدايات الأسرات المصرية القديمة، أي الأسرتان الأولى والثانية، في منطقة أبيدوس في سوهاج في صعيد. وفي مجموعات هرمية كثيرة وُجدَت حفرات مراكب مماثلة، لكن في حالة الملك خوفو وُجِدت خمس حفرات مراكب حول الهرم، وكان الهدف منها طبقًا للديانة المصرية القديمة أن يركبها الملك خوفو في رحلتيه مع إله الشمس الإله رع، في رحلتي إله الشمس في الليل والنهار. وكانت هناك مركب لرحلة الليل ومركب أخرى لرحلة النهار. وتم تأليه خوفو في حياته واعتباره مساويًا لإله الشمس رع. ومن هنا أخذت المراكب اسم «مراكب الشمس»، ولم تكن مراكب جنائزية كما ادعى البعض. وكانت هذه المراكب ذات دلالاتٍ دينية، وكانت مرتبطة بآلهة معينة. وارتبطت اثنتان من مركبتي الملك خوفو برحلتي إله الشمس رَع، وهما المركبتان الموجودتان إلى الجنوب من ضلع هرم الجيزة الأكبر الجنوبي. ووُجدَت مثل هذه المراكب في مناطق أثرية عديدة. وكانت منِ الأمور المعروفة في مصر القديمة، غير أن

مراكب خوفو تحظى بشهرةٍ أكبر لمعرفة الناس بها وزيارتها ضمن زيارة منطقة أهرامات الجيزة الأثرية.

ويعتبر المشروع المصري الياباني لإعادة بناء مركب خوفو الثانية للحياة حدثًا ثقافيًا كبيرًا؛ ومن المتوقع أن يلفت أنظار العالم إليه عند الانتهاء منه، خصوصًا مع إعادة تجميع وعرض المركب الثانية في قاعة خاصة بها بالمتحف المصري الكبير. ويدعم هذا المشروع من أواصر العلاقات الثقافية القوية بين القاهرة وطوكيو؛ وذلك نظرًا لأن مصر منذ أقدم عصورها لها باع طويل في عالم البحار وبناء السفن والملاحة البحرية والنهرية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اليابان التي هي عبارة عن مجموعة من الجزر في المحيط؛ لذا فإنه مما لا شك أن هذا المشروع سوف يمثل أهمية كبرى لارتباطه بالملك خوفو العظيم الذي يعتبر هرمه الأكبر واحدًا من أهم الآثار الخالدة والمهمة الموجودة في العالم كله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٠)
خليفة الملك زوسر

سقارة هي بمثابة مدينة الأقصر الخاصة بمنطقة الشمال في مصر، هي أرض السِّحر والتاريخ والاكتشافات الأثرية المذهلة. والتي تقع في مركز البدرشين في محافظة الجيزة. وتحتوي سقارة على مقابر ملكية وغير ملكية من عصور مصرية قديمة للأسرات مختلفة منذ البدايات وإلى نهاية التاريخ المصري القديم وما بعده. وهي جبَّانة مدينة منف عاصمة مصر القديمة الأبدية ومقر الحكم والإدارة والتجيل والتقديس طوال العصور المصرية القديمة حتى وإن انتقلت العاصمة إلى مكان آخر غير منف، كان يبقى لمدينة منف الأزلية وضعها المقدس عبر العصور.

كنوز سقارة

تحتوي جبانة سقارة على عددٍ كبيرٍ من الأهرامات من بينها هرم الملك زوسر المدرج الشهير، أول بناء حجري وهرمي كبير في تاريخ مصر القديمة وتاريخ الإنسانية جمعاء، والذي يعود إلى عصر الأسرة الثالثة المصرية في عصر الدولة القديمة أو عصر بناة الأهرام الذي يبدأ من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة. ويُعَدّ هرم سقارة المدرج الذي بناه المهندس المعماري العبقري إيمحتب، وزير الملك زوسر، أقدم وأكبر بناء حجري مكتمل معروف تاريخيًّا، حينما قرر إيمحتب البناء بالحجر على نطاق واسع لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية، وحينما قرَّر بناء كل عناصر المجموعة خصوصًا العناصر النباتية بالحجر، فكانت إضافة مهمة في تاريخ العمارة في مصر القديمة، خصوصًا عمارة الأهرامات. ومنذ ذلك الحين، صارت المجموعة الهرمية للملك زوسر هي المدرسة المعمارية الكبرى التي فتحت عصر بناة الأهرام وهي مدرسة منف المعمارية المصرية العريقة التي تعلَّم فيها كل المعماريين المصريين، والتي نظر إليها كل خلفاء إيمحتب بكل الاحترام والتقدير والامتنان على عظيم صنيعه لمصر وحضارتها العظيمة وتاريخها المجيد. صارت فكرة بناء الأهرامات مثالاً يُحتذَى منذ ذلك. واستمر بناء الأهرامات المدرَّجة إلى أن وصلنا إلى أول هرمٍ كاملٍ في تاريخ الحضارة المصرية وهو هرم الملك سنفرو في دهشور أو ما يُعرَف بالهرم الأحمر أو الهرم الشمالي إلى أن وصلنا إلى الهرم الأكبر بالجيزة والذي يخص الملك خوفو، إحدى عجائب الدنيا السَّبع في العالم القديمة والعجيبة الوحيدة الباقية من عجائب العالم القديم، والذي بناه المهندس المعماري العبقري حم إيونو وأكمل من بعده البناء المهندس المعروف عنخ حاف والذي بنى أيضًا هرم الملك خفرع بهضبة الجيزة.

وشيَّد عددٌ كبيرٌ من الملوك المصريين القدماء أهرامات في سقارة، إضافة إلى عددٍ من المصاطب الأثرية الجميلة التي ترجع إلى عصر الدولة القديمة، بالإضافة إلى بعض الآثار الجنائزية التي شيَّدها بعض كبار المسؤولين في مصر القديمة. وتم تصنيف المنطقة الممتدة من أهرامات الجيزة إلى دهشور مرورًا بسقارة أو ما نعرفها بالجبَّانة المنفية كموقع تراث عالمي من قِبَل منظمة اليونسكو العالمية منذ عام ١٩٧٩م. ومنذ عصر الأُسرَتين الأولى والثانية أو عصر الأسرات المبكر أو العصر العتيق، قام بعض النبلاء المصريين ببناء مقابرهم في منطقة سقارة. أما أول المنشآت الملكية المُشيَّدة في سقارة، فكانت مصطبة أثرية شُيِّدت في عهد الملك خع سخموي، آخر ملوك الأسرة الثانية التي تُعرَف الآن بمنطقة جسر المدير. ثم توالى بناء المقابر الأثرية والأهرامات في سقارة في عصر أغلب الأسرات المصرية حتى صارت سقارة هي مكان الدفن المقدس عبر العصور المصرية القديمة. وصارت ذات قداسة ومكانة كبيرة في أعين المصريين القدماء، وكان حُلم الجميع الدفن في جبانتها المقدسة أو إعادة استخدام إحدى مقابرها القديمة للدفن مرة أخرى. وأثبتت الاكتشافات الأثرية المتوالية والقادمة من منطقة آثار سقارة على أهمية هذه الجبَّانة الحيوية عبر عصور مصر القديمة قاطبة منذ البدايات وما قبلها وإلى النهايات. وأذهلت الاكتشافات الأثرية العالم كلَّه. وأعطت اكتشافات سقارة الأخيرة لمصر القديمة مكانتَها وأبهرت العالم وما تزال تسحر أعين الناس في كل مكان في العالم.

جهود الملك سخم خت

الملك سِخِم خِت هو ملك مصري عاش في عصر الأهرامات أو عصر الدولة القديمة. وحكم تحديدًا في عصر الأسرة الثالثة. وقد ذكرَ المؤرخ المصري الشهير مانيتون السمنودي أن هناك مَلِكًا حمل اسم «جوسرتي». وحكم مدةً قصيرةً للغاية، تُقدَّر بحوالي سبع سنوات. ويميل علماء الآثار إلى الاعتقاد أن الملك الذي حمل اسم «جوسرتي» هو نفسه الملك سخم خت. بينما تعطي قائمة تورينو للملك «سخم خت» حكمًا يُقدَّر بحوالي ست سنوات. ويعتبر مدة تاريخ قائمة مانيتون هي الأقرب إلى الصواب.

ورغم أنه كان هناك خليفة معروف للملك زوسر الشهير صاحب الهرم المدرج بسقارة، إلا أن اسم سخم خت ظلَّ غير معروف إلى أواسط القرن العشرين الميلاد، حتى نجح المرحوم محمد زكريا غنيم (١٩٠٥ - ١٩٥٩م) في اكتشاف القاعدة المستوية لهرم ومداخل هرم مدرج غير مكتمل في منطقة آثار سقارة إلى الجنوب الغربي من هرم سقارة المدرج. وعند وفاة الملك سخم خت، لم يكن قد تم بناء سوي الدرجة الأولى (السفلى) من الهرم. وعثر محمد زكريا غنيم على سدَّادات قوارير عليها اسم الفرعون بالموقع. ومن

تصميمها ومن الكتابات المنقوشة على الهرم، يُعتقد أن المعماري الخاص بالملك زوسر الشهير المهندس العبقري إيمحتب قد ساهمَ دون شكٍّ في تصميم هذا الهرم. ويعتقد علماء الآثار أن هرم الملك سخم خت كان سيكون أكبر من هرم الملك زوسر لو اكتمل بناؤه قبل رحيل الملك سخم خت في عمر قصير. والموقع حاليًا مطمور في الرمال إلى الجنوب الغربي من مجموعة الملك زوسر الهرمية. ونـطلق عليه اسم «الهرم الدفين». وهو نفس العنوان الذي كتبه المرحوم زكريا غنيم عن اكتشافه المهم، والذي تمت ترجمته إلى اللغة العربية منذ فترة بعيدة.

وترجع قصة الاكتشاف إلى عام ١٩٥٢م، حيث اكتشف الأثري المصري النابه محمد زكريا غنيم أمين جبانة سقارة، هرم الملك سخم خت (٢٦١١ - ٢٦٠٣ ق.م.) - من ملوك الأسرة الثالثة - الذي لم ينتهِ العمل فيه، خلف هرم الملك زوسر المدرج الشهير، في منطقة سقَّارة، وقد أراد مشيِّدُه أن يكون صورة شبيهة من هرم الملك زوسر لكن لم يكتمل بناء هذا الهرم سواء في داخله أو مصاطبه.

ويبدو شيئًا محيرًا للغاية أن يختفي من الوجود هرمٌ، والأشد حيرة من ذلك هو اكتشافه فالأهرام من الأشياء التي لا يعتقد في اختفائها أو فقدها. وقد عثر غنيم على جزءٍ من السور الخارجي (السور الأبيض) الذي يُشبِه بدرجة كبيرة السور الخارجي الموجود في مجموعة الملك زوسر الجنائزية في سقارة، والذي طبَّق فيه النظام المعماري المعروف باسم «المشكاوات»، (أو الداخلات والخارجات) والذي كان تقليدًا لواجهة القصر الملكي التي كانت تتناوبها مثل هذه التشكيلات المعمارية في هذه العصور المبكرة من تاريخ مصر القديمة.

وفي ٢٢ يناير ١٩٥٢م، ظهرت المفاجأة في الموسم الأول، وتأكد للمكتشف غنيم أنه ليس هرمًا عاديًا، وإنما هرم مدرَّج. وفي يناير ١٩٥٤م، بدأ البحث عن مدخل الهرم أسفل الحجرات السفلية للهرم، ونظرًا لوقوع مدخل هرم الملك «زوسر» في الناحية الشمالية منه، نظَّف غنيم الرمال في الجانب نفسه في هرمه المكتشف، فوجدَه بناءً شبيهًا. وفُتح الهرم في ٩ مارس ١٩٥٤م، واهتمت وسائل الإعلام العالمية والمحلية بالهرم الجديد ومكتشفه المصري الدؤوب محمد زكريا غنيم.

ودخل المكتشف ممرًا طويلاً مملوءًا بالرديم والأنقاض، فنظَّفه، فوجد مئات من الأواني الجنائزية من الأحجار الصلبة واللينة مرتبة في طبقات على أرضية الممر، تشبه تلك الموجودة في مجموعة الملك زوسر الهرمية، ثم عثر على آثار مدهشة مثل علبة مساحيق تجميل على شكل قوقعة ذهبية نادرة، وخرز من القيشاني، ومجموعة من الأواني المختومة بأختام الطمي تحمل اسم

صاحب الهرم الملك سخم خت، وأوانٍ نحاسية وأدوات نحاسية وأدوات نحاسية وظرانية (زلطية) ووجد أسفل الهرم مخازن صغيرة عدة.

وفي مايو ١٩٥٤م، اشتد العمل صعوبة داخل الهرم ووصل غنيم إلى حجرة دفن الملك. وقال عن تلك اللحظة: «عندما دخلنا وارتفع ضوءُ المصباح، شاهدت في منتصف الحجرة تابوتًا ضخمًا من الألباستر، فتحركت إليه، وكان أول سؤال يدور بذهني: هل هذا التابوت سليم لم يُمَس؟». وجثا على ركبتيه فوجد التابوت فارغًا، ولم يعثر على ما يؤكِّد أن باني هذا الهرم قد دُفنَ فيه. ويقول غنيم عن تلك اللحظات الصعبة في حياته: «إنه من الصعب عليَّ أن أصف هذه اللحظات، خليط من الرهبة، والفضول، والشك... شعرت أن للهرم شخصية، وأن هذه الشخصية كانت مجسَّدة في الملك نفسه الذي بُني من أجله الهرم، وما تزال أصداء أنفاسه تتردد بيننا».

وبعد حوالي ثلاث سنوات في (١٢ يناير ١٩٥٩م) تحديدًا، وحين جردت عهدة زكريا غنيم الأثرية في سقارة تمهيدًا لتوليه إدارة المتحف المصري في القاهرة، وُجِّهت إليه تهمة ضياع بعضها، وتحديدًا الآثار التي اكتشفها في هرم الملك سخم خت، فلم تتحمل نفس زكريا غنيم الأبيَّة وقع الصدمة، فألقى بنفسه في نهر النيل الخالد، ليموت منتحرًا وهو في العام الرابع والخمسين من عمره القصير، وهو في قمة العطاء، وكان يتوقع منه الكثير لمصر وآثارها الخالدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١١)

كنوز تانيس الفريدة

شعور بالرهبة والجلال والعظمة ينتابك عند الاقتراب من حكاية تانيس كأنك تدخل في محراب التاريخ، لتشاهد آثار مدينة كُتبَ لها الخلود، وتنفصل تمامًا عن أحداث ووقائع الحياة اليومية للمعيشة في العصر الحالي.

تاريخ الموقع

تُعَدُّ تانيس - أو صان الحجر - الموقع الأثري الأكثر أهمية في شمال شرق الدلتا، وعاصمة الإقليم التاسع عشر من أقاليم مصر السفلى في العصر المتأخر (٧٤٧ - ٣٣٢ ق.م.)، وتقع في مركز الحسينية في محافظة الشرقية، وتبعد عن مدينة القاهرة حوالي مائتي وخمسين كيلو مترًا. وذكرت في النصوص المصرية القديمة باسم «جعنت» وتعني «المدينة التي بُنيت في الأرض الخلاء»، كما ورد ذكرها في التوراة باسم «صوعن»، أما اسم «تانيس» فقد أطلقه عليها الإغريق نسبةً إلى الفرع التانيسي، أحد أفرع نهر النيل السبعة القديمة، بينما أطلق عليها العرب اسم «صان» تحريفًا عن الأصل المصري القديم، ونظرًا لكثرة الأحجار بها أضافوا إليها الحجر، فأصبح يطلق عليها اسم «صان الحجر» إلى الآن.

وتعتبر تانيس من أهم المواقع الأثرية في الأرض المصرية. وكانت عاصمة للإقليم التاسع عشر من أقاليم مصر السفلى، وإحدى مدن مصر القديمة الرئيسة، وإحدى عواصم مصر المهمة في دلتا النيل المصرية. وبرزت أهمية تانيس مع نهاية عصر الدولة الحديثة وبداية عصر الانتقال الثالث؛ نظرًا لاتخاذها عاصمة لمصر في عصر الأسرتين الحادية والثانية والعشرين، المضمحلتين سياسيًّا والغنيتين أثريًّا وتاريخيًّا.

جهود البحث في موقع تانيس

وأجرى الحفر بها أثريون عظام أمثال أوجست مارييت بين الأعوام ١٨٦٠ - ١٨٨٠م، ووليام فلندرز بترى بين الأعوام ١٨٨٣ - ١٨٨٦م، وبيير مونتييه بين الأعوام ١٩٢١ - ١٩٥١م. وكان في عام ١٩٣٩م، لحظة عظيمة الأهمية في تاريخ مصر القديمة، حين اكتشف الأثري الفرنسي «بيير مونتييه» مقابر جبَّانة عصر الانتقال الثالث الملكية الغنية، من الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين (١٠٤٠ - ٧٨٣ ق.م.) في تانيس. وتدفق عدد كبير من الآثار الساحرة من تلك المدينة التي كللها المجد والعظمة في مصر القديمة، من خلال حفائره التي قام بها بين الأعوام ١٩٣٩ - ١٩٤٦م. وكان هناك سبب كبير

أثّر بالسَّلب على نتائج حفائره، ألا وهو نشوب الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥ - ١٩٣٩م) في توقيت الاكتشاف، مما جعل الحدث السياسي بتبعاته يصم الآذان عن اكتشافات تانيس المذهلة، وجعل اكتشافاته المهمة لا تحظى بمكانتها الإعلامية التي كانت تستحقها آنذاك.

ولم يدخل المكتشفون الفرنسيون المقبرة الأولى من مدخلها الأصلي، وإنما من السقف. وبُنيت حجرة الدفن من كتل من الحجر الجيري والجرانيت الوردي، وزُينت الجدران بنقوش من «كتاب الموتى» و«كتاب الليل»، وهما من الكتب الدينية المهمة في مصر القديمة. واحتوت المقبرة الدفنة الغنية التي تخص الملك أوسركون الثاني بكل كنوزها الفاتنة من الحلي الذهبية والتمائم والأواني الذهبية والفضية.

ودخل المكتشف المقبرة الثانية من السقف أيضًا، في يوم (١٧ مارس ١٩٣٩م)، الذي أطلق عليه اسم: «يوم العجائب المثيرة لألف ليلة وليلة». ومن خلال دخوله حجرة صغيرة ملونة، ثبت أنها تخص الملك بسوسنس الأول (١٠٣٤ - ٩٨١ ق.م.) - المقبرة رقم «٣» في تانيس - وجد نفسه محاطًا بأكوام رأسية من الأثاث الجنائزي.

واحتوت المقبرة أيضًا على دفنة الملك شاشانق الثاني (٨٩٥ - ؟ ق.م.) محاطًا بجسديَّ الملكين سي آمون (٩٤٨ - ٩٦٨ ق.م.) وبسوسنس الثاني (٩٤٠ - ٩٤٥ ق.م.). ووصل إلى حجرة دفن الملك بسوسنس الأول التي لم تُمس، فوجد بها الأواني الكانوبية وأشكال الأوشابتي والأواني الذهبية والفضية والتابوت الذي أخذ من دفنة الملك مرنبتاح (١٢٠١ - ١٢١٢ ق.م.) - ابن الملك رمسيس الثاني - من مقبرته في وادي الملوك. وكانت الحجرة الأخرى التي على الجانب الآخر مخصصة في الأصل لدفن أم الملك بسوسنس الأول، الملكة موت نجمت، واحتوت الدفنة الغنية للملك آمون إم أوبت (٩٧٤ - ٩٨٤ ق.م.). وما تزال المفاجآت تذهل مونتييه وبعثته من الأثريين، فوجد حجرة أخرى احتوت تابوتًا فارغًا للقائد عنخ إف إن موت. ثم أكمل العمل في ١٣ فبراير ١٩٤٦م، الأثري الفرنسي ألكسندر ليزين في الدفنة التي لم تُمس لقائد عسكري آخر، هو «ونج باو إن جدت» وكانت قليلة الحلي والأثاث الجنائزي.

ومنذ ذلك الحين لفتت تانيس أنظار العالم بآثارها الرائعة والجميلة والكثيرة المستخرجة من مقابرها حتى إن هناك قاعة كاملة خُصِّصَت لروائع تانيس بالمتحف المصري بالقاهرة لا تقلُّ روعة وجمالاً بأي حالٍ من الأحوال عن آثار مقبرة الفرعون الذهبي توت عنخ آمون المحفوظة بنفس المتحف. فمن بين تلك الآثار، يجد المرء العديد من التوابيت والمصنوعات الذهبية والحُلي والمشغولات من اللازورد والأحجار الكريمة مثل الأقنعة الجنائزية الخاصة بعددٍ من ملوك تلك الفترة مثل القناع الذهبي الأشهر للملك بسوسنس الأول.

فزيارة واحدة للمتحف المصري بالقاهرة أو لمدينة صان الحجر نفسها كفيلة بأن تجعل المرء يرجع بالزمن إلى الوراء آلاف السنين ليعيش بين مجد وكنوز مدينة تانيس الذهبية.

وما تزال الحفائر الأثرية في تانيس مستمرة وتثير الدهشة. فقد كشف الأثري الفرنسي فيليب بريسو منذ فترة موقع البحيرة المقدَّسة الخاصة بمعبد الإلهة موت (زوجة الإله آمون وأم الإله خونسو اللذين يشكلان مع الإله آمون ثالوث مدينة تانيس المماثل لثالوث مدينة طيبة «الأقصر الحالية»؛ مما جعل من تانيس بمثابة طيبة الشمالية) في حالةٍ جيدةٍ على مبعدة حوالي ١٢ م من سطح الأرض. وبلغت مساحة البحيرة ١٢ م عرضًا و١٥ م طولاً وحُددت بأحجار ملونة من الحجر الجيري. وهذه هي البحيرة الثانية التي تكتشف بتانيس بعد البحيرة المقدسة الخاصة بمعبد الإله آمون (المعبود الرئيس للمدينة) في عام ١٩٢٨ واكتشفت بعد ذلك مقابر الملوك بالقرب منه. فهل تخرج لنا حفائر المواسم القادمة مقابر الملكات بالقرب من المعبودة موت وفي رحاب معبدها، كما حدث مع الملوك والمعبود آمون ومعبده من قبل؟ نأمل أن يحدث ذلك حتى تعود تانيس وآثارها الرائعة إلى أذهان العالم أجمع مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٢)
مقبرة جميلة الجميلات

جميلة الجميلات هي الملكة نفرتاري الملكة الأجمل والأكثر سحرًا وجاذبية، والزوجة الملكية الكبرى، والأجمل والأحَب في قلب زوجها نجم الأرض، فرعون مصر الأشهر، ملك الملوك؛ الملك رمسيس الثاني الذي عاش في عصر الأسرة التاسعة عشرة في عصر الدولة الحديثة.

واسمها الكامل هو «نفرتاري ميريت موت». ويعني نفرتاري محبوبة الربة موت، ويعني اسمها المختصر الأشهر، «نفرتاري»، «أحلاهن»، أو «حلاوتهم» بالعامية المصرية.

وكان من فرط وعظم حب وإعزاز وتقدير رمسيس الثاني لزوجته المحبوبة نفرتاري هو أن أمرَ بتصويرها معه في معظم آثاره، وبناء الآثار الكبيرة والجميلة لها مثل مقبرتها البديعة في وادي الملكات رقم ٦٦ ومعبدها إلى جوار معبده في «أبوسمبل.»

معبد أبوسمبل

تقع مدينة «أبو سمبل» إلى الجنوب من أسوان على الضفة الغربية لنهر النيل في النوبة المصرية بالقرب من حدود مصر مع السودان الشقيق، وبنى الفرعون الأشهر رمسيس الثاني بـ «أبوسمبل» معبدين في الصخر المعبد الكبير له، والمعبد الصغير لمحبوبة قلبه الجميلة نفرتاري.

وكان معبد «أبوسمبل» الكبير واحدًا من أربعة معابد بُنيت خلال فترة حكم الملك رمسيس الثاني كوحدة واحدة، والثلاثة الأخرى هي: معبد وادي السبوع (مقر المعبود آمون رع)، ومعبد الدر (مقر المعبود رع حور آختى)، ومعبد جرف حسين (مقر المعبود بتاح). وقد أمرَ الفرعون رمسيس الثاني مهندسيه البارعين بالبدء في بناء معبديّ «أبو سمبل» في السنوات الأولى من فترة حكمه العريق، واكتمل العمل فيهما في العام الخامس والعشرين من حكمه المديد.

ويطل معبد «أبو سمبل الكبير» على بحيرة ناصر في منظر جمالي رائع قلما أن يتكرر في أي مكانٍ أثريٍّ آخر، حيث تتزاوج زرقة السماء الصافية بزرقة المياه الرائقة ورمال صحراء مصر الصفراء النقية بصخور المعبد الداكنة، وخضرة الأشجار والنباتات الموجودة في المنطقة بسمرة أبناء مصر المميزة.

كما يعتبر من روائع فن العمارة في مصر القديمة، ومن أروع معالم معبد «أبو سمبل» الكبير هو اختراق شعاع الشمس باب المعبد ليصافح وجهَ رمسيس الثاني مرتين من كلِّ عام في ظاهرة هندسية وفلكية تثير الانبهار باستمرار ويؤكِّد هذا على عبقرية المصري القديم التي لها أدلة كثيرة لا تزال تحير العالم كله إلى يومنا الحالي، وتعد ظاهرة تعامُد الشمس على وجه تمثال الملك رمسيس الثاني بذلك المعبد المهم حدثًا فريدًا ينتظره عشاق مصر في كل مكان في العالم.

ويقع معبد «أبو سمبل» الصغير أو معبد جميلة الجميلات الملكة نفرتاري إلى جوار المعبد الكبير الخاص بزوجها الفرعون الشهير الملك رمسيس الثاني، ومن أجل الجميلة نفرتاري، بنى لها زوجُها ذلك المعبد المتميز المنحوت في الصخر الطبيعي. ونُحتَت تماثيل عديدة في واجهة المعبد تمثل الملك العظيم وزوجته الجميلة التي أبهرت العالم، قديمًا وحديثًا بجمالها وجاذبيتها وعذوبتها ورِقَّتها التي لا تُقاوم، ثم تتوالى الأجزاء المعمارية المكونة لهذا المعبد المهم، وصارت نفرتاري الزوجة العظمى للملك رمسيس الثاني، على الرغم من تعدُّد زيجاته ومحظياته، وكانت نفرتاري أم ستة من أهم أبناء الملك رمسيس الثاني، ومن فرط حبه الشديد لزوجته فائقة الجمال، أمر الملك المعظم بإنشاء مقبرة رائعة لها في وادي الملكات.

وقد حملت منطقة وادي الملكات في مصر القديمة أسماء عدة مثل «الوادي العظيم»، و«الوادي الجنوبي»، و«تا ست نفرو»، ويعني الاسم الأخير «مكان الجَمَال»، وشاع أكثر من الاثنين السابقين، وأُسس في البداية كجبَّانة مخصصة لدفن نساء الطبقة الحاكمة من المجتمع المصري القديم في بداية عصر الدولة الحديثة على الشاطئ الغربي لنهر النيل المواجه لمدينة الأحياء في شرق طيبة (الأقصر الحالية)، ولم تبدأ الحفائر العلمية المنظمة إلا في عام ١٩٠٣، بوصول الإيطالي الشهير «إرنستو سيكيابارللى» - مدير المتحف المصري في تورينو - وحصوله على التصريح بالتنقيب في الوادي من مصلحة الآثار، فنجح في اكتشاف مقبرة الملكة الفاتنة نفرتاري، جميلة الجميلات.

ومنذ العثور على هذه المقبرة الجميلة، اعتبرت واحدة من أجمل المقابر التي أبدعتها مخيلة المصريين القدماء فكرًا وأداءً، فبلغت الرسوم المصورة على جدرانها وممراتها (٥٢٠) مترًا مربعًا من الجمال الساحر، وحين اكتشفها «سيكيابارياللي» في عام ١٩٠٤، فتح الباب ليطل العالم على واحدة من أجمل الإبداعات الفنية في العالم عبر تاريخ الفن البشري الطويل، وعلى واحدة من أجلّ وأجمل المقابر القادمة من مصر الفرعونية ذات الرسوم التي تخلب الأبصار، وتسحر العقول بجمال مناظرها، وتنوُّع موضوعاتها، ونقاء وصفاء ألوانها. وأصبح من المفضَّل عند عشاق الجمال الراغبين في نشدان البهجة

زيارة هذه المقبرة للنَهْل من جمالها الأخَّاذ، وأصبح الجمال علامةً وعنوانًا عليها وعلى صاحبتها، جميلة الجميلات، كما كانت الحال في حياتها الأولى المليئة بالجمال والحب والسعادة والعشق في عهد مليكها العاشق الأبدي لها ولجمالها التي كانت تنافس به حتحور ربة الحب والجمال عند قدماء المصريين، وتحول الطموح الفني الذي راود وساور صاحبتها ومبدعيها إلى حقيقة واقعة واضحة كوضوح الشمس في كبد السماء في نهار مشمس رائق العذوبة.

وماتت نفرتاري مبكرًا في عهد زوجها الملك رمسيس الثاني، في حدود العام الرابع والعشرين من حكم الملك المديد، ودُفنَت في مقبرتها الأشهر والأكبر والأهم بين مقابر وادي الملكات في البر الغربي لمدينة الأقصر.

لقد كانت جميلة الجميلات نفرتاري ملكة قوية ومؤثرة بقوة في عهد زوجها، نجم الأرض الفرعون الأشهر، الملك رمسيس الثاني، ولعبت آنذاكٍ دورًا كبيرًا في الشؤون الدبلوماسية في الدولة المصرية العريقة؛ نظرًا لما كانت تتمتع به من مهارات عديدة مثل فنون الكتابة، خاصةً الكتابة الهيروغليفية، والقراءة وأصول وفنون علم المراسلات الدبلوماسية، فأفادت بمهاراتها الكبيرة مصر وزوجها الملك العظيم الشأن في الشرق الأدنى القديم، فضلاً عن حبها وإخلاصها لزوجها الملك المعظم مما جعل من قصة حب رمسيس الثاني ونفرتاري أعظم قصص الحب والعشاق التي خلَّدَها الإنسان في الحجر والفن قبل أن يخلدها في فنون الأدب والقول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٣)
عام العجائب المدفونة

معابد الكرنك.

معابد الكرنك هي فاتيكان مصر القديمة، أو المكان المقدَّس الذي صار مركز الدين في مصر القديمة منذ عصور مبكرة إلى نهايات العصور المصرية القديمة. وصار قِبلةً لكل ملك وملكة سواء أكان مصريًّا أو غير مصري. وساهم الجميع في البناء فيه تقربًا لربه المقدس آمون أو آمون رع بعد ذلك، وكذلك لزوجته الربة موت وابنه الإله خونسو، وكذلك بعض الآلهة التي ارتبط بها رب الأرباب في مصر القديمة الإله آمون العظيم.

والكرنك، أو مجمع معابد الكرنك الذي يُشتهر باسم معبد الكرنك، هو مجموعة من المعابد والأبنية والأعمدة، حيث استمرت عمليات التوسع والبناء منذ العصر الفرعوني، وتحديدًا ملوك الدولة الوسطى، إلى العصر الروماني في الأقصر على الشط الشرقى. المعبد بُنيَ للثالوث الإلهي آمون (آمون رع في الدولة الحديثة)، وزوجته الإلهة موت، وابنهما الإله خونسو؛ ولكل منهم معبد تابع لمجمع معابد الكرنك.

أصل التسمية

سُمِى المعبد بهذا الاسم نسبة لمدينة الكرنك، وهو اسم حديث محرف عن الكلمة العربية الخورنق. وتعني القرية المحصنة، والتي كانت قد أُطلقَت على العديد من المعابد بالمنطقة خلال هذه الفترة. بينما عرف المعبد في البداية باسم «برآمون»، أي «معبد آمون» أو «بيت آمون»، وخلال عصر الدولة الوسطى، أُطلقَ عليه اسم «إبت سوت»، والذي يعني «المختار من الأماكن» (وتُرجمَت أحيانًا بـ «البقعة المختارة»). وقد عُثرَ على هذا الاسم على جدران مقصورة الملك سنوسرت الأول في الصرح الثالث من صروح الكرنك. كذلك عُرفَ المعبد بالعديد من الأسماء منها نيسوت - تاوي أي «عرش الأرضين و«إبت إيست» أي «المقر الأروع.»

كان لتسمية المعبد بتلك الأسماء علاقة مع الاعتقاد المصري القديم بأن طيبة كانت أول مدينة تأسست على التلة البدائية التي ارتفعت عن مياه الفوضى في بداية نشأة الكون. وفي ذلك الوقت وقف الإله آتوم (أحيانًا الإله بتاح) على التلة لبدء صنع الخلق. كذلك كان يُعتقَد أن موقع المعبد هو هذه الأرض. وتم رفع المعبد في هذه البقعة لهذا السبب.

مع وصول ملوك الأسرة الحادية عشرة إلى توحيد وحكم مصر الموحدة، كانت الكرنك تعدُّ بالفعل أرضًا مقدسة. ويبدو أن شكلاً من أشكال عبادة الإلة آمون قد أخذ من بقعة الكرنك مكانًا له، التي كانت لها أثر مباشر في زيادة قوة وثروة آمون ودمجه تدريجيًّا مع إله الشمس رع. وكان عصر الدولة الحديثة هو العصر الذهبي للكرنك، بسبب أن ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وهي أول أسرة اهتمت بعبادة آمون بعد أن دُمج مع رع فأصبح آمون رع. وعبدوه كإله الحرب. وبما أن الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة اشتهرتا بالفتوحات العسكرية؛ فكان لا بُدَّ من الاهتمام بمعبده لأخذ الدعم منه في حروبهم.

وكان الملك أمنحتب الأول هو أول من فكَّر في بناء معبد لآمون رع في تلك البقعة، والتي كانت نفس البقعة التي بُني عليها المعبد القديم في عصر الدولة الوسطى. ثم تلاه الملك تحتمس الأول. وأقام الصرحين الرابع والخامس، ومسلتين من الجرانيت الأحمر، ما تزال إحداهما قائمة إلى الآن، وكذلك صالة الأعمدة، ثم تلته الملكة حتشبسوت، والتي حكمت مصر حوالي ٢٣ عامًا. وشيدت الصرح الثامن، والمسلتين المشهورتين، وما تزال إحداهما قائمة، ويتعدى طولها ٢٩ مترًا. وقامت ببناء بعض المقاصير أيضًا. وتلاها الملك تحتمس الثالث، الذي شيد بعض المقاصير وأحاط مسلتي حتشبسوت ببناء من الطوب اللَّبِن ما تزال بقاياه موجودة إلى الآن، وكذلك ما تزال هناك علامات بالمسلة القائمة على وجوده. كذلك شيد الصرحين الرابع والخامس وصالتي الحوليات. وتلاه الملك أمنحتب الثالث، الذي شيد الصرح الثالث، وأيضًا صفي الأعمدة العملاقة في صالة الاحتفالات. ثم جاء الملك أخناتون، أول فرعون موحد نادي بعبادة آتون. ورمز له بقرص الشمس وبني له معبدًا بالكرنك، لكنه لم يدم؛ إذ سرعان ما هدمه الملك حور محب تحت تأثير نفوذ الكهنة. وجاء الملك حور محب، والذي حاول استرضاء الكهنة، فأقام الصرح الثاني والتاسع والعاشر. ويتكون الكرنك من عشرة صروح مع بعضها تشكِّل المعبد كوحدة واحدة، بناها فراعنة وملوك تعاقبوا على حكم مصر لمئات السنين.

اكتشف المهندس المعماري الفرنسي جورج ليجران في نهاية عام ١٩٠٣م فناء الخبيئة بالصرح السابع بمعابد الكرنك. وكانت عبارة عن حفرة شاسعة مساحتها تصل إلى حوالي ٢٣٠٠ متر مربع، وكانت تضم عددًا لا يحصى من الآثار والتماثيل. وكان أول كنوز الخبيئة تمثالاً ضخمًا للملك «سيتي الأول»، ثاني ملوك الأسرة التاسعة عشر ووالد الملك رمسيس الثاني الشهير، وحوالي ٨٠٠ تمثال.

ومع نهاية عام ١٩٠٣، بلغَ عدد التماثيل المكتشفة ٣٣٣ تمثالاً بأحجام مختلفة من التماثيل الملكية وغير الملكية، إلى جانب ثمانية آلاف تمثال صغير من البرونز. وفي يونيو عام ١٩٠٤ م، كان سجل الحفائر الخاص بالخبيئة يضم ٥١٩ قطعة. وأُطلق على هذا العام «عام العجائب المدفونة». وأمر ليجران في عام ١٩٠٧ بإغلاق الموقع بعد اكتشافه حوالي ٧٨٠ تمثالاً. وبعدها استعاد فناء الخبيئة بالكرنك شكله الأصلي كأرضية مسطحة.

وتبدأ قصة الكشف عندما قام جاك دي مورجان بتعيين ليجران مفتشًا بمصلحة الآثار، والذي بدأ عمله كعضو في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ثم مديرًا للأعمال بالكرنك. وتُعَد خبيئة التماثيل التي اكتشفت في منطقة معابد الكرنك بين الأعوام ١٩٠٣ - ١٩٠٧، أكبر خبيئة تماثيل تكتشف في مصر على الإطلاق، إلى الآن، وكم كانت مفاجأة سارَّة وغير متوقعة لليجران - الذي بدأ العمل في الكرنك منذ عام ١٨٩٥ - أن يكتشف مثل هذا العدد الهائل من التماثيل الرائعة القادمة من مصر القديمة، التي يبدأ تاريخها منذ بداية الأسرة الفرعونية الأولى في عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد تقريبًا، ويمتد طوال تاريخ الحضارة المصرية القديمة كلها إلى نهاية الحقبة اليونانية - الرومانية.

وبدأت أحداث قصة هذا الاكتشاف المذهل - بالعثور على هذا العدد الضخم من أفضل تماثيل مصر القديمة في هذا المكان المجهول من الكرنك - في نهاية عام ١٩٠٣م، عندما كان عمال المهندس ليجران ينظفون أرضية الفناء الأول أمام الصرح السابع للمعبد الكبير، فاكتشفوا كسراتٍ عدة من تمثال ضخم للملك سيتي الأول وكان منسوب ماء النيل مرتفعًا في ذلك الوقت من العام، وكذلك مستوى المياه الجوفية، وتحولت أرضية المعبد إلى بحرٍ من الطين اللزج. وكان يظهر أسفل تلك الكسرات المشار إليها سابقًا، عددٌ كبيرٌ من التماثيل، فنزل العمال إلى هذا البحر الأثري العجيب واستخرجوا بعضًا من روائع فن النحت في مصر القديمة من هذه المساحة الصغيرة.

وفي نهاية شهر ديسمبر، أي بعد شهرٍ من بدء الاكتشاف، بلغ عدد التماثيل الكاملة المستخرجة حوالي الأربعين، وغير الكاملة حوالي العشرين، علاوة على عددٍ ضخمٍ من الأدوات البرونزية. وبسرعة فائقة وصل العدد الكلي إلى ٧٨٠ تمثالاً وقطعة حجرية و١٧٠٠ أداة برونزية، وعدد كبير من التماثيل الخشبية التي لا تعيش طويلاً بسبب مادتها الهشة، وعدد من اللوحات الحجرية المنقوشة بالكتابات الهيروغليفية، والمسلات الصغيرة، وموائد القرابين، وكميات من عظام الكباش وأوانٍ معدنية وحجرية قليلة، وبعض العناصر المعمارية الحجرية.

ويعتبر اكتشاف خبيئة الكرنك نموذجًا بديعًا لبعض فيض عطاء وسحر مصر القديمة التي سحرت العالم منذ قديم الأزل، وما تزال، إلى وقتنا الحالي،

فكان اكتشافًا بحق يوضِّح عصرًا من السحر والجمال والروعة والبهاء قادمًا من مصر القديمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٤)
كوم الشقافة

(سر المقبرة)

أصل الاكتشاف

في عام عام ١٩٠٠، سقط أحد الحمير في بئر، فتمَّ العثور على مقبرة كوم الشقافة في الحي الوطني غرب مدينة الإسكندرية، وهو حي كوم الشقافة الحالي، عن طريق تلك المصادفة البحتة. وقد قامت الحيوانات بدور كبير في مساعدتنا في اكتشاف العديد من الآثار المهمة والمثيرة في مصر. ويقع حي كوم الشقافة إلى الجنوب من حيِّ مينا البصل. واسم كوم الشقافة هو الترجمة الحديثة للاسم اليوناني، وتحريفه اللاتيني، وسبب التسمية يرجع إلى كثرة البقايا الفخارية التي كانت تتراكم في هذا المكان.

ومقبرة كوم الشقافة من المقابر الفريدة في العالم من طراز catacomb أي المقابر أو الممرات أو السراديب المحفورة في الصخر تحت الأرض للدفن والتي شاعت في عصر الإمبراطورية الرومانية. ويرجع تاريخ المقبرة إلى النصف الأول من القرن الأول الميلادي واستمرت في الاستخدام إلى القرن الرابع الميلادي.

ويتضح من وصف هذه المقبرة أن مدينة الإسكندرية في العصر الروماني قد احتفظت بحضارة ذات طابع خاص، وأن روما فضَّلت احترام عادات وتقاليد المصريين؛ حيث نلاحظ وجود العديد من المناظر المأخوذة من مقابر مصر الفرعونية.

وصف تفصيلي للمقبرة

مقبرة كوم الشقافة ذات ثلاثة طوابق من المقابر الأرضية المحفورة في الصخر التي انتشرت في روما وغيرها في القرون الثلاثة الأولى الميلادية. ويتميز تخطيط هذه المقبرة بتناسب الأحجام ووضوح الشكل العام، إضافة إلى أنها تمثِّل شكلاً واضحًا لامتزاج الفن المصري القديم مع الفنين اليوناني والروماني.

ودفع تعقيد تخطيط المقبرة مع اختلاف عناصرها الزخرفية العديد من الباحثين إلى أن هذه المقبرة لم تُبنَ مرة واحدة.

ويرجع أقدم أجزاء المقبرة إلى المرحلة التي بين القرنين الأول والثاني الميلادي. ويبدو أن المقبرة كانت خاصة بإحدى العائلات الثرية، ثم استخدِمَت

بعد ذلك لدفن العامة بعد أن تولّى أمرها جماعةٌ من اللحَّادين. غير أن المقبرة الأساسية لم يحدث بها أيُّ تغيير؛ إذ كان اللحَّادون يستخدمون طريقة للدفن تسمَّى «اللوكالي» وهي عبارة عن فتحات في الجدار توضع فيها الجثة.

وتتكون المقبرة من مدخل فوق الأرض، وسلم حلزوني يدور حول بئر أسطواني أو مسقط نور محفور في الصخر قُطره حوالي ستة أمتار، ويصل عمقه الحالي إلى نحو عشرة أمتار تقريبًا. والسلم مكوَّن من كُتَل حجرية مربعة، بها نوافذ مستديرة من أعلى، وتعتبر الواجهة الداخلية من بئر الإضاءة. وكان يتم إنزال جثة المتوفي بالحبال من مسقط النور حتى يصل إلى الطابق الأول. ويبلغ عرض السلم نحو مترًا وعشرين سنتيمتر، وسقفه على شكل قبو مكوَّن من خسمة صفوف من القطع الحجرية المتلاصقة. وكان الأحياء يستخدمونه للنزول. ومن الملاحظ أن درجات السلم السفلية أكثر ارتفاعًا من الدرجات العلوية.

ويرجع السبب في ذلك إلى أن الصاعد الخارج من المقبرة يكون أكثر نشاطًا وقدرة في القاع بعد الانتهاء من زيارة موتاه، غير أنه يُصَاب بالتعب كلما تقدَّم في الصعود إلى أعلى واقترب من سطح الأرض للخروج من المقبرة؛ لذا تبدو الدرجات العلوية كأنها طريق حلزوني قليل الانحدار وليس سُلَّمًا فعليًّا.

ويتكون الطابق الأول الأرضي من مدخل وصالة مستديرة تسمى الروتاندا، وصالة التريكلينوم ذات الأرائك الثلاث، والتي تُعرَف اصطلاحًا باسم «صالة المآدب»، إضافة إلى الصالة التي تُعرف بشكل غير دقيق باسم «صالة كاراكلا» والتي كانت جزءًا من مقبرة مجاورة. والمدخل هو عبارة عن مكان صغير مغطى بقبو عند آخر لفات السلم، وعلى جانبيه فجوتان متساويتان مثل المحراب، ولكل منهما مقعد نصف دائري بشكل الفتحة وله سقف مزخرف على هيئة الصدفة المحفورة في الصخر. وزخرفة الصدفة هي زخرفة رومانية انتشرت خلال العصر الأنطونيني، أي في منتصف القرن الثاني الميلادي.

ويبدو أن هذين المقعدين كانا عاملاً مساعدًا لراحة الصاعد. ويؤدي المدخل إلى الروتاندا التي يتوسطها بئرٌ قُطره ستة أمتار تقريبًا. ويرتكز سقف الصالة على ستة أعمدة. وعلى حافة الجدران كانت توجد خمس رؤوس آدمية انتقلت إلى المتحف اليوناني - الروماني في الإسكندرية.

وإلى اليسار من الروتاندا، توجد صالة المآدب أو «التريكلينيوم». وكان فيها يجتمع أهل المتوفي لتناوُل الطعام عند زيارة المقبرة. والصالة عبارة عن حجرة مربعة ذات أربعة أعمدة على الطراز الدوري، وبها ثلاث أرائك. وإلى اليمين، توجد الصالة المعروفة بالخطأ باسم «صالة كاراكلا». ويرجع السبب في هذه التسمية إلى اكتشاف عددٍ كبيرٍ من العظام التي ظنَّ البعض أنها

عظام لآدميين قُتلوا أثناء مذبحة التي قام بها كاراكلا في الإسكندرية عام ٢١٧ م، غير أنه لوحظ بعد فحص هذه العظام أنها كانت تخص خيولاً كانت مدفونة في هذا المكان بعد موتها في السباقات الرياضية. كما كُشفَ كذلك عن نقش للإلهة «نمسيس» ربة الرياضة. وهكذا، فإن هذه الصالة كانت صالة مخصصة للخيول المقدسة، وليست للآدميين.

ويقع السلم المؤدي إلى حجرة الدفن الأساسية في نهاية الصالة المستديرة من ناحية الغرب. وهو سلم مصمَّم بانحدار شديد ويتكوَّن من خمس عشرة درجة واسعة، الأربعة الأولى منها يبلغ عرضها مترين وعشرين سنتيمتر، والدرجات الباقية أقل في العرض. وسقف السلم مزخرف بنفس زخرفة الصدفة. وفي نهاية السلم، منصة تُشبه منصة الملقن في المسرح، تخفي أسفلها سلمًا كان مغمورًا بالمياه وقت اكتشاف المقبرة. وخلف هذه المنصة دهليز يتكون من عمودين مستديرين في الوسط يرتكزان على قاعدتين لهما زوايا مثمنة الشكل. وتيجان وقواعد الأعمدة مزخرفة بعناصر نباتية مختلطة من الفن الروماني والفن المصري القديم. وفي الجدارين الأيمن والأيسر دعائم مزخرفة بأوراق البردي والأكانتس. وفوق الأعمدة إفريز وعتب منقوش عليه قُرص الشمس المجنح بين صقرين. ويعلو هذا العتب إفريز مسننات ثم جزء علوي على شكل قوس يتوسطه قرص شمس.

ويلي هذا الدهليز دهليز آخر، على جانبيه تجويفان على شكل ناووس يحتويان تمثالين لرجل وامرأة مصنوعين من الحجر الجيري الأبيض. وقد يمثِّلان صاحب وصاحبة المقبرة. والوقفة والملابس على الطراز المصري، وملامح الوجه وتصفيف الشعر يغلب عليهما الطابع الروماني. ويلي ذلك حجرة الدفن التي تتكون من باب مصري الطابع أعلاه كورنيش على الطراز المصري القديم، يتوسطه قرص الشمس المجنح، وينتهي من أعلى بصفٍّ من زخرفة الصل الملكي المقدس.

وعلى جانبي الباب، قاعدتان على شكل الناووس المصري، يعلوهما ثعبانان كبيران يلبس كلٌّ منهما التاج المزدوج. ويرمز هذان الثعبانان لإله الخير في العالم الآخر «أجاثودايمون». وبجانب كل ثعبان من الخلف كماشة ترمز للإله «هِرمس»، وهو رسول الآلهة ومرشد الموتى إلى العالم الآخر. ومن الأمام صولجان رمز الإله «ديونيسوس». ويعلو كل ثعبان نقشٌ مستديرٌ على هيئة الدرع يتوسطه رأس «الجورجون» أو «الميدوزا»، والتي كانت حسب أساطير اليونان يتحول كل من يراها إلى حجر، وربما كان المقصود بها إرهاب اللصوص وحماية المقبرة ممن تسول له نفسه بلعبث بها.

وحجرة الدفن مربعة وذات ثلاثة فجوات، واحدة في مواجهة المدخل، واثنتان على الجانب. وهناك نَحْتَان بارزان على الجدار الخلفي للحجرة يمثِّل المعبود

المصري «أنوبيس» بملامح رومانية تمامًا. وسقف حجرة الدفن مقبٍ يستند على أربع دعامات مزخرفة بعناصر فنية مختلطة. وفي كل فجوة من الفجوات يوجد تابوت منحوت في الصخر. وربما كانت الجثث تُوضَع في فجوة داخل التابوت من فتحة من الممر الخارجي المحيط بهذه الحجرة. وربما كان السبب في هذا التصميم هو أن التابوت ليس من الرخام، ولكن من الحجر الرملي.

وربما خشي مصمم المقبرة أن يؤثر تحريك التابوت على كيان المقبرة المعماري، فجعل التابوت والغطاء كتلة واحدة.

والتوابيت من النوع الروماني وتتكون زخرفتها من فستونات وجماجم الثيران وعناقيد ورأس «الميدوزا». والمناظر على جدران التابوت ذات طابع جنائزي مصري قديم. وهي منقولة من المناظر الموجودة على جدران مقابر الأقصر من مصر القديمة، وتحديدًا من عصر الدولة الحديثة. وممثل على التابوت الموجود في مواجهة المدخل زخرفة عبارة عن عقود من الزيتون والغار، يتدلى منهما قناعان، أحدهما ينتمي إلى «سيلينوس»، أحد أتباع العالم الآخر. والآخر يرمز إلى «الميدوزا»، ويعلو العنقود عند منتصفه نحت بارز يمثل سيدة مضطجعة، ربما كانت صاحبة التابوت.

ويزين الجدار خلف التابوت منظر يمثل أوزيريس إله الموتى على هيئة مومياء ترقد على سرير مقدمته على شكل رأس أسد يحمل تاج أوزيريس، ويعلوه قرصُ شمسٍ. بين رِجْليّ الأسد الأماميتين ريشة رمز ماعت، ربة العدالة. وعند رأس الجثة، يوجد الإله جحوتى ممسكًا بيده صولجانًا بيده اليمنى، وعلامة «عنخ» أو «علامة الحياة» بيده اليسرى. وعند القدمين يوجد الإله حورس برأس صقرٍ وعلى رأسه التاج المزدوج، ويمسك صولجانًا بيده اليسرى، وبيده اليمنى إناءً يخرج منه نبات. ويقف خلف السرير الإله أنوبيس رب التحنيط برأس ابن آوى ويلبس رداءً رومانيًا، ويعلو رأسه قرص شمس بين حيتين، وفي يده اليسرى إناء على شكل زهرة لوتس. وتحت السرير ثلاثة أوانٍ كانوبية لحفظ الأحشاء. وتكون عادة أربعة، وعدم وجود الإناء الرابع هنا، ربما يرجع إلى جهل من الفنان، أو ربما لضيق الحيز، أو ربما، وهذا هو الأرجح، إلى وجود الإله أنوبيس الذي يؤدي الدورين هنا: دور إله التحنيط من ناحية، ودور أحد أبناء حورس من ناحية أخرى؛ ويؤكد هذا أن الإناء غير الموجود كان يمثل على هيئة رأس الإله أنوبيس.

وعلى جانبي التابوت منظران إلى اليمين وإلى اليسار. يمثل المنظر الأيمن كاهنًا يرتدي جلد الفهد ويضع على رأسه تاجًا ذا ريشتين، ويقدِّم زهرة لوتس وكأسًا لسيدة ربما تكون هي المتوفاة. وتضع هذه السيدة على رأسها شعرًا يعلوه قرص شمس، وترفع يدها كأنها تتقبَّل التقدمة. وبين الكاهن والمرأة،

يوجد مذبح على شكل زهرة لوتس. أما المنظر الأيسر، فيمثل كاهنًا يقرأ أدعية من لفة بردي بين يديه. وأمام هذا الكاهن يقف رجل، هو المتوفي، يمسك بيده اليمنى شيئًا غيرَ واضح المعالم، وربما يمثل قرن الخيرات، ويرفع يده اليسرى على رأسه التي يعلوها قرص شمس. ويفصل الكاهن بين المتوفي مذبح تخرج من جانبيه زهور لوتس. وعلى المذبح إناء صغير يحتوي على نبات أو بخور.

وتتوسط واجهة التابوت الأيمن رأسُ ثور يرمز إلى التضحية أو القرابين. وعلى جانبيه عنقودا عنب يتوسطهما من أعلى رأس «الميدوزا». وعلى الجدار خلف التابوت صُور الإله سيرابيس على هيئة العجل أبيس ويقف على قاعدة، وأمامه هيئة إمبراطور يرتدي تاجًا مزدوجًا، ويقدِّم قلادة «أوسخت»، أي القلادة الواسعة، للعجل، وتقف خلف العجل إلهة مجنحة، ربما تكون الإلهة إيزيس.

ويظهر المنظر الجانبي الأيسر للتابوت الإله بتاح على هيئة مومياء ممسكًا بكلتا يديه بصولجان، ويضع فوق رأسه قُرصَ شمس، وأمامه هيئة آدمية، بينها وبين الإله مذبح تخرج من جوانبه غصون على شكل زهرة لوتس، وعلى المذبح إناء. ويمثِّل المنظر الجانبي الأيمن هيئة آدمية، وأمامها إله برأس كلب، وعلى رأسه قرص شمس.

وتشبه المناظر المصوَّرة على التابوت الأيسر تمامًا الموجود على التابوت الأيمن مع بعض الاختلافات مثل وجود أشكال نصف دائرية فوق صورة العجل أبيس معلَّقة على ما يشبه الحبل، رداء الإلهة المجنحة مزخرف بالحيات المقدسة، أجنحة الإلهة مصورة بدقة ووضوح أكثر من الإلهة الموجودة على الناحية اليمنى.

وعلى جانبي التابوت منظران. الأول يمثل إلهًا ربما أوزيريس في شكل المومياء، وعلى رأسه قرص شمس، وذراعاه متقاطعتان على ظهره. وأمام الإله يقف إمبراطور في زِيٍّ مصري قديم يمسك بريشة العدالة وعلى رأسه تاج آتف المصري، وبين الإله والإمبراطور مذبح. والمنظر الثاني يمثل إلهًا برأس صقر. وعلى رأسه تاج مزدوج، وأمامه إلهة برأس آدمية ترمز إلى الربة إيزيس وتمسك في يدها صولجانًا، وبين الإله والإلهة مذبح عليه إناء. ويتميز ما حول حجرة الدفن الأساسية بتخطيطه البسيط. وتم تسقيف المسطح. وفي جداره الأيمن نُقر صفان من فتحات الدفن المعروفة باسم «اللوكالي»، ويبلغ عددها نحو ثلاثمائة فتحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(١٥)
كنوز الواحات البحرية

بعد الاكتشافات الأثرية المذهِلة في الواحات البحرية، صارت قِبلةً للسياح من مختلف أنحاء العالم؛ نظرًا لأنها من أهم المناطق الأثرية والسياحية في الأرض المصرية، وعروس صحراء مصر الغربية؛ ولأنها ذاتُ تاريخٍ ثري وتطور طبيعي منذ أقدم العصور، وذات أجواء ساحرة وذات تاريخ عريض، وآثارها ومواقعها من أهم الآثار وأشهر المواقع. والحق يقال فإن الواحات البحرية منطقة سياحية مهمة للغاية، وهي أملُ مِصر في السياحة في صحراء مصر الغربية، خصوصًا السياحات القصيرة وسياحة السفاري والسياحة البرية والسياحة الخدمية والترفيهية والجوية والترانزيت والعلاجية التي تستغل المناظر الطبيعية في السياحة خصوصًا النفسية منها وغيرها، وبها مجالات عديدة من الحِرَف التقليدية والمقتنيات الأثرية والبيئية والصناعات الصغيرة، وبها أيضًا عدد ليس بالقليل من الفنادق الصديقة للبيئة.

وتقع الواحات البحرية في صحراء مصر الغربية على بُعدٍ يبلغ حوالي ٤٢٠ كم من القاهرة. وتتكون من واحات القصر ومنديشة والباويطي والحيز. وتتبع محافظة الجيزة وعاصمتها هي مدينة الباويطي. وتعتمد في اقتصادها على زراعة وتجفيف البلح وزراعة الزيتون والسياحة.

تاريخ الواحات البحرية

يُعَد تاريخ الواحات البحرية تاريخًا ثريًّا يعكس أهم فترات التاريخ التي مرَّت بها مصر منذ أقدم العصور إلى الآن. وكشفَتْ الحفائر الأثرية التي أجريَت في منطقة الحيز - شمال عاصمة البحرية مدينة الباويطي - عن أن المنطقة كانت مأهولةً بالسكان في منتصف عصر الهولوسين الجيولوجي، وأن أهل الواحات البحرية عاشوا بالقرب من البحيرات التي كوَّنها المطر.

وترجع الإشارات الدالة على وجود ذِكرٍ للواحات في عصر الدولة القديمة إلى الأسرة السادسة. وكان عصر الانتقال الأوَّل مرحلةً مضطربة في تاريخ مصر القديمة. ولم تمدنا الآثار إلى الآن بأي شيءٍ يُذكَر عن وضع الواحات البحرية في ذلك العصر. وشهد عصر الدولة الوسطى تزايدًا ملحوظًا في الأنشطة والعلاقات بين أهل وادي النيل وأهل صحراء مصر الغربية. وبدأت الأسرة الثانية عشرة بحماية حدود مصر الغربية عن طريق بناء سلسلة من الحصون. وجاءت أهم الإشارات إلى الواحات في نهاية عصر الانتقال الثاني على لوح الملك كامس حين أشار إلى البحرية في أحد نصوصه من عصر الهكسوس الذي ربما توقفت فيه التجارة بين وادي النيل والواحات لافتقاد الأمن.

واستمرت أهمية الواحات البحرية في عصر الدولة الحديثة كإحدى النقاط الاستراتيجية والعسكرية على حدود مصر الغربية. وعُيِّنَ أحد أبناء البحرية المدعو أمنحتب حوى كحاكم إقليمي وتُنسَب إليه أقدم المقابر المكتشفة في الواحات البحرية. وتعتبر مقبرة أمنحتب حوى حاكم الواحات البحرية من أهم الآثار التي تعود إلى تلك الأسرة. وقد ذكر أكثر من مرة على جدران مقبرته أنه من أهل الواحات، وربما كان ذلك سببًا في أن يُدفَن في تلك المقبرة في موطنه الأصلي. وتقع المقبرة على مقربة من قرية القصر. ولا تحمل مناظر المقبرة أية تأثيرات أجنبية؛ وعلى هذا الأساس فإن أمنحتب حوى وعائلته وخدمه يظهرون بملابس مصرية، والملاحظ أن المقبرة نفسها لا تختلف عن أيِّ مقبرة مصرية من تلك الفترة. وتمثل المناظر المصورة على جدرانها المناظر الجنائزية التقليدية ومناظر المآدب، فضلاً عن ظهور صاحب المقبرة وهو يساعد في عملية وزن وتخزين الحبوب وأواني الخمر. وأشار الملك رمسيس الثاني إلى البحرية في معبد آمون بالأقصر على أنها مكان مقدس.

وأدرك الملك شاشانق الأول من ملوك الأسرة الثانية والعشرين أهمية الواحات كمحطاتٍ للقوافل وكأراضٍ غنية بالنبيذ الذي كان يُعَدُّ هدية عظيمة. ثم سكن العديد من العائلات الليبية منطقة الواحات البحرية. وكان من بينهم رجلٌ يدعى إرعاوا في السنوات الأخيرة من حكم الأسرة الثالثة والعشرين. وسوف نرى بعد ذلك أن أحد أحفاده أصبح حاكمًا للواحات البحرية وكاهنًا أعلى لكل الآلهة التي تُعبَد فيها في عصر الأسرة السادسة والعشرين. وكان ذلك الرجل وأسرته المسؤولين عن تشييد معظم الآثار التي اكتشفت في البحرية. وهذا الحاكم هو جد خونسو إيوف عنخ.

وتعتبر الأسرة السادسة والعشرون أو ما يُعرَف بالعصر الصاوي نسبةً إلى عاصمتهم مدينة سايس (صا الحجر) في الدلتا المصرية واحدة من الفترات المزدهرة في تاريخ مصر في العصر المتأخر. وتوثقت الصلة بشكلٍ كبيرٍ بين أهالي الدلتا أو مركز الحكم في مصر وبين الواحات خصوصًا البحرية وسيوة في عهد الملك واح إيب رع (أبريس). وفي الغرب، بسط نفوذه على الواحات وأقيم في عهده معبد ما تزال بقاياه موجودةً إلى الآن. وأخذت البحرية في الازدهار تحت حكم الملك أحمس الثاني (أمازيس)؛ ففي عهده تم إنشاء أربع مقاصير في عين المفتلة، أشرفَ على تشييدها جد خونسو إيوف عنخ. وعمل الملك أحمس الثاني (أمازيس) على تعميرها وتحصينها كي يتمكن أهلُها من الدفاع عن أنفسهم ضد أي اعتداء من الغرب.

وعانت الواحات البحرية في الفترة التي تفصل بين نهاية حكم الفرس لمصر ومجيء الإسكندر الأكبر لمصر مثلها مثل باقي الأراضي المصرية. وعادت أهميتها تبرز من جديد بمقدم الإسكندر المقدوني والذي صُوِّرَ يقدم القرابين

للإله آمون في معبده. وتعود أسباب إنشاء هذا المعبد ونسبته إلى الإسكندر الأكبر إلى زيارة الإسكندر الأكبر الشهيرة لمعبد الوحي في سيوة لاستشارة الإله آمون عمَّن قتل والده. ولقد تسلم الإسكندر الإجابة والأكثر من ذلك فقد خلعَ كهنة آمون عليه ألقاب الفراعنة. وربما يكون الإسكندر قد مرَّ في طريقه إلى سيوة بالبحرية؛ فشيد هذا المعبد تخليدًا لذكرى تلك الزيارة.

وتحت حكم البطالمة نمت البحرية بقوة ونشط اقتصادها وطورت طرق التجارة خصوصًا المؤدية إلى ليبيا، وأنشئ العديد من النقاط العسكرية. وبعد أن تمكنوا من احتلال ليبيا، أنشأ البطالمة حامية عسكرية قوية في الواحات البحرية لحماية طرق التجارة بين مصر ودارفور عن طريق درب الأربعين الذي يصل الواحات الخارجة بغرب السودان. وقاد الإمبراطور الروماني هادريان قوات حربية إلى الواحات البحرية. وعثر على خريطة تبين ووجود معسكرات القوات الرومانية في عدة مناطق بالبحرية مثل الحيز. ووصلت البحرية إلى أوج ازدهارها في العصر الروماني، وتم زراعة القمح الذي كان يُصدَّر بكثرة إلى العاصمة روما.

وفي العصور المسيحية ذُكرَت الواحات البحرية مرارًا في التراث المسيحي وتاريخ الكنيسة القبطية المصرية. ووجدت آثار مسيحية في القصر والباويطي ومنديشة والحيز. وكذلك استمر ذِكرُها في العصور الوسطى قبل دخول الإسلام مصر. وبعد دخول الإسلام إلى البحرية، استمرت أهميتها عبر عصور مصر الإسلامية قاطبة كممر مهم من خلال دروب الصحراء تنقلت تجارة القوافل عبره. وزارها عددٌ من الرحالة في القرن التاسع عشر. وعملَ بها الدكتور أحمد فخري في النصف الأول من القرن العشرين. ثم أكمل الدكتور زاهي حواس العمل في نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين. وما تزال الواحات البحرية أرضًا بِكرًا للعمل الأثري ولآفاق الاستثمار السياحي والثقافي.

آثار الواحات البحرية

تحفل الواحات البحرية بعددٍ كبيرٍ من المقابر والمقاصير والمعابد والمعالم الأثرية المتميزة مثل مقابر العصر الصاوي في منطقة الشيخ سوبي ومنطقة قارة قصر سليم ومقاصير عين المفتلة ومعبد الإسكندر الأكبر، المعبد الوحيد له في مصر كلها إلى الآن، ومعبد الإله بس، ووادي المومياوات الذهبية «وسبق الكلام عنها»، وعدد من الآثار اليونانية والرومانية والقبطية والإسلامية، وعدد من المواقع الطبيعية ذات المناظر الساحرة التي ليس لها مثيل في العالم أجمع مثل عيون المياه الطبيعية والمزارات البيئية مثل متحف تراث الواحات البحرية والصحراء البيضاء والسوداء وجبل الكريستال والحيز وغيرها. وفيما يلي نلقي الضوء على أهم آثارها.

مقابر الباويطي

تُعَدُّ مقبرة أمنحتب حوي من أقدم مقابر الواحات البحرية. والتي حفرت في الصخر الرملي المحلي. وكان لطبيعة المنطقة السبب في تفرُّد تلك المقابر حيث تميزت بأن حجراتها ذات أسقف مقبية. وتُعَدُّ مساحة المقبرة في الواحات البحرية صغيرة. وتتكون المقابر غالبًا من صالة ذات أعمدة وحجرات صغيرة جدًّا في أركانها. وترجع مقابر الواحات البحرية من العصر المتأخر إلى العصر الصاوي، ولجميع مقابر الأسرة السادسة والعشرين في الواحات البحرية مداخل صالات ذات أعمدة باستثناء مقبرة جد آمون إيوف عنخ؛ حيث أن أعمدة مقبرته مستديرة وذات قمم على شكل زهرة بردي وأعمدتها ملونة بلون أبيض وتخلو من أي مناظر. وللمقابر الأخرى أعمدة مربعة ذات مناظر تصور آلهة، وذات سقوف مقبية مكسوة بجص وملونة. ويمكن تقسيم مقابر الأسرة السادسة والعشرين في الواحات البحرية إلى قسمين؛ مقابر قارة قصر سليم هي عبارة عن تل صغير يكتنف مدينة الباويطي. ونتج هذا الارتفاع عن الحطام المتراكم عبر العصور. وتوجد أعلى التل مقبرتان من أهم مقابر الأسرة السادسة والعشرين وهما مقبرتا جد آمون إيوف عنخ وابنه بانتيو.

وحفرت مقبرة جد آمون إيوف عنخ في الحافة الشرقية لمدينة الباويطي وتدعى قارة قصر سليم. ولم يتبقَّ من المقبرة سوى حجرة الدفن التي يمكن الوصول إليها عن طريق بئر. وكُسيت جدران حجرة الدفن بطبقة جص ملون بلون أالأصفر. وتحتوي حجرة الدفن على مناظر من كتاب الموتى. أما المقصورة العلوية، فلم يبقِ منها شيء. وتفتح حجرة الدفن ناحية الغرب، وسد مدخلها بكتلة ضخمة من الحجر الرملي. وتوجد في جدران المقبرة عدة أبواب وهمية ملونة. وحجرة الدفن مربعة الشكل تقريبًا، ولم تُقطع أركانها بإتقان، وتدعم السقف أربعة أعمدة ملوَّنة ومحفورة في الصخر وتيجانها على هيئة زهرة بردي. وغطت طبقة من جص ملون مدخل حجرة الدفن، وجدرانها، وأعمدتها وسقفها. وذُكرَ اسم جد آمون إيوف عنخ عدة مرات على جدران حجرة الدفن دون أي لقب.

وتقع مقبرة بانتيو إلى الغرب من مقبرة والده جد آمون إيوف عنخ بحوالي خمسة عشر مترًا. ولم يُعثر على أي آثار للمقصورة العلوية. وطول البئر حوالي ستة أمتار، وأسفلها مدخلان، أحدهما يفتح ناحية الجنوب، بينما المدخل الآخر في الناحية الشمالية يؤدي إلى حجرة الدفن الأساسية. وتتكون المقبرة من صالة ذات أعمدة وثلاث حجرات جانبية، واحدة منها فقط هي المنقوشة وهي الحجرة الأساسية المواجهة للمدخل.

واختفت مداخل مقابر قارة الشيخ سوبي منذ أن اكتشفها الدكتور أحمد فخري في النصف الأول من هذا القرن العشرين؛ حيث بُنيت فوقها منازل

حديثة بمدينة الباويطي. ونجد أن أربعة من تلك المقابر موثقة ومؤرخة بواسطة الدكتور أحمد فخري في كتب عدة، وهي مقابر لها أهمية تاريخية مميزة في الواحات البحرية.

ويفتح مدخل مقبرة بادي عشتار ناحية الشمال. ويمكن الوصول إليها عن طريق بئر مغلق من أعلى. وتتكون المقبرة من صالة بها أربعة أعمدة وثلاث حجرات، ويرقد التابوت بين الأعمدة، والصالة ذات سقف مقبِ. وسُدَّت الحجرة الداخلية بكتل من الأحجار. وجدران البئر مكسوة بجص لكنها غير مزخرفة، وفي الصالة ذات الأعمدة، أول المناظر، وكل جوانب الأعمدة الأربعة مكسوة بجص ومزخرفة أيضًا.

وقُطعت مقبرة ثاتي في الجرف الغربي، وهي أحدث من مقبرة جده بادي عشتار التي تقع خلفها، ومدخلها في الاتجاه المقابل. ويُعَدَّ صخرها فقيرًا جدًّا وسقفها متساقطًا في أماكن عديدة، وجدرانها مليئة بتصدعات تسبَّبت في تحطيم جزءٍ كبيرٍ من مناظرها. ويقع مدخل المقبرة ناحية الجنوب، وهي مثل المقابر الأخرى بها حجرات تحت الأرض يتم الوصول إليها عن طريق بئرٍ. وكان الوصول إلى مقبرة ثاتي سهلاً. ويمكن من خلال كسر في جدارها الشمالي الدخول إلى مقبرة بادي عشتار. وسقط جزءٌ من سقف المقبرة وحدث بجدرانها تلفٌ كثيرٌ ورُدمَت المقبرة برمالٍ مرة أخرى بعد أن نظَّفها الدكتور فخري وشُيِّدَت منازل فوقها. وتقع مقبرة تانفرت باستت على بُعد عدة أمتارٍ من مقبرة زوجها ثاتي وهي مقبرة غير مكتملة. وتُعَدَّ واجهة جدارها ملساء عند السطح الخارجي. ووُضعَت فوقها طبقة خفيفة من الجص ثم لُوِّنَت بعد ذلك. وهناك جزءٌ صغيرٌ مزخرف من هذه المقبرة. وصُوِّرَت صاحبتها في حضرة المعبودات أوزير وإيزيس ونفتيس.

قصر علام

اعتبر الدكتور أحمد فخري قصر علام قلعةً حربيةً رومانيةً. وهو عبارة عن مبنى ضخم من الطوب اللَّبِن. وإلى وقتٍ قريبٍ ظلَّ العلماء على هذا الاعتقاد ويستشهدون به عند الحديث على وجود الرومان وتأثيرهم القوي في الواحات. وكان يُعتقَد أن قصر علام يرجع إلى العصر الإسلامي وتم ترميمه من قِبَل قطاع الآثار الإسلامية والقبطية في المجلس الأعلى للآثار. ثم أرسل المعهد الفرنسي للآثار الشرقية فريقَ بحثٍ للعمل في تلك المنطقة وبفحص الفخار الموجود حول المنطقة وداخل نطاق القصر، أدرك الفريق الفرنسي أنه يرجع إلى عصر الأسرة السادسة والعشرين. وتعد وظيفة القصر غير معلومة إلى الآن، ولكن ضخامة المبنى وروعة التصميم تشيران إلى أنه يخص مؤسسة مهمة كانت لها سيطرة على المصادر الاقتصادية شمال الواحات البحرية، كما أن الأختام التي عُثر عليها في الموقع تشير إلى أن البضائع كانت

تُخزن بنظام وتتحكم في تخزينها إدارة ربما كانت ملكية أو محلية أو كهنوتية. وربما تثبت الدراسات المستقبلية أنه كان لهذا القصر صلة بطبقة الحكام أصحاب المقابر وبناة المقاصير من عصر الأسرة السادسة والعشرين.

مقاصير عين المفتلة

تعود مقاصير عين المفتلة الأربع إلى عصر الأسرة السادسة والعشرين الصاوية أي إلى نفس الفترة التي ترجع إليها المقابر. وأشرف على بناء هذه المقاصير الكاهن شبن خونسو، ثم أكملها من بعده حاكم الواحات البحرية جد خونسو إيوف عنخ في عهد الملك أحمس الثاني (أمازيس). وتقع هذه المقاصير بالقرب من قرية القصر القريبة من الباويطي. وسُميت تلك المنطقة بعين المفتلة نظرًا لقربها من عين مياه تسمى بعين المفتلة تقع إلى الشمال الشرقي من المقاصير، وهي تُعَدُّ من أهم عيون المياه الطبيعية في البحرية. وكان عالِمُ الآثار الألماني جورج إشتيندورف قد اكتشف جدار إحدى هذه المقاصير من قبل، إلى أن بدأ الدكتور أحمد فخري العمل في الموقع إلى أن اكتشف المقاصير الأربع نتيجة بعثاته الأثرية المتتالية. وبُنيَت هذه المقاصير من كتل من الحجر الرملي وكُسيَت جدرانها بطبقة رقيقة من الملاط واستخدِمَ في نقشها أسلوب النقش الغائر. وتم إعادة استخدام العديد من كتل تلك المقاصير ومن ثم فُقد العديد من نقوشها. ويلاحظ أن تخطيط المقاصير بسيط وتصميمها المعماري غير مميز.

معبد الإله بس

بالقرب من مقاصير عين المفتلة، عُثَر على معبد صغير للإله بس، أحد الآلهة المنزلية الحامية وإله المرح في مصر القديمة. ويتكوَّن المعبد من عددٍ من الحجرات التي ربما كانت مخصصةً للأعياد. وجاء من هذا المعبد أكبر تمثال من الحجر الرملي للإله إلى الآن، وهو بالمتحف المصري بالقاهرة.

معبد الإسكندر الأكبر

يُعَدُّ معبد الإسكندر الأكبر هو المعبد الوحيد الذي خُصِّص لهذا الفاتح المقدوني العظيم في مصر إلى الآن. ويصوَّر على جدرانه الإسكندر الأكبر مُقدِّمًا القرابين للإله آمون الذي أحد أهم الآلهة المصرية التي عُبدت في الواحات البحرية في العصر اليوناني - الروماني. ولعلَّ بناء هذا المعبد يُعَدُّ تخليدًا لذكرى مرور الإسكندر الأكبر بالبحرية في طريقه لمعبد الوحي في واحة سيوة.

واختتم مؤكدًا أن الواحات البحرية هي أملُ مِصر في السياحة في القرن الحادي العشرين. ويُعَدُّ التعريف بها وآثارها في جميع أنحاء العالم من خلال

كل الوسائل الممكِنة هدفًا مهمًّا لزيادة الرواج السياحي لتلك المنطقة الأثرية والسياحية المهمة. وفي ظِل اهتمام الدولة بصحراء مصر الغربية من أجل تنميتها وتعميرها، لا بُدَّ من اتخاذ عدد من الخطوات المهمة مثل تمهيد الطرق المؤدية للأماكن الأثرية وإعداد الأماكن الأثرية للزيارة والتسويق السياحي لهذه المواقع الأثرية والسياحية وإنشاء عدد أكبر من الفنادق المتنوعة خصوصًا الصديقة للبيئة وبنائها وتأثيثها من مواد من البيئة المحلية وعدم استخدام الوسائل الحديثة في تجهيزها ورفع كفاءة الفنادق الحالية وتحديثها بما يناسب الحفاظ على البحرية وعدم تدمير بيئتها الطبيعية الفريدة. ولا بُدَّ من توفير وسائل مواصلات بسيطة لا تدمِّر طبيعة الواحات البحرية الساحرة نظرًا، كما سلفَ القول، لتمتُّع الواحات البحرية بتاريخ ثري وممتد منذ أقدم العصور إلى العصر الحالي، وامتيازها بوجود عددٍ كبيرٍ من الآثار الفريدة من مختلف العصور وعدد كبير من المعالم الطبيعية والسياحية والثقافية التي لو أحسن تنميتها وتوظيفها لأصبحت الواحات البحرية أملَ مِصر الأساسي في السياحة في القرن الحادي والعشرين. غير أنه كي تتحقق هذه الأهداف، لا بُدَّ من الاهتمام الكامل بالواحات البحرية وتأهيلها بالشكل الذي يليق بها حتى تصبح عاصمة مصر السياحية في الصحراء الغربية بحق، وحتى تصير عن جدارة قِبلة السياحة العالمية الوافدة إلى مصر أم الدنيا صاحبة التاريخ والحضارات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٦)

إلفنتين جوهرة الجنوب

تقع جزيرة إلفنتين، ابنة النهر، جوهرة الجنوب، في قلب نهر النيل في مواجهة مدينة أسوان في صعيد مصر، وتبلغ مساحتها حوالي ١٥٠٠ م طولاً و٥٠٠ م عرضًا. وعُرفَت هذه الجزيرة في العصور الفرعونية باسم «آبو» وتعني «الفيل» أو «عاج (سن الفيل)» التي تحوَّلت في اللغة اليونانية إلى كلمة «إلفنتين» التي تحملها الجزيرة إلى الآن؛ وذلك على اعتبار أن تلك الجزيرة كانت ميناء مهمًا لاستقبال العاج الأفريقي المستخرَج من سن الأفيال. وكانت الجزيرة بالفعل نقطةً محوريَّةً على الطرق التجارية إلى الجنوب من مصر، فضلاً عن أنها كانت مقرًا أساسيًا لكل البعثات الحكومية والعسكرية والتجارية المتجهة جنوبًا أو العائدة إلى أرض الوطن. وأعطى تكوين الجزيرة الجيولوجي - إذ نشأت المدينة على صخرة جرانيتية - أهمية كبيرة لإلفنتين حيث اُستخدمَت أحجارها الجرانيتية السوداء والرمادية والحمراء في عددٍ من الأعمال الإنشائية والفنية قديمًا وحديثًا.

وفي العصور الفرعونية، تركَّز النشاط العمراني الرئيسي من بناء معابد ومقابر في الجزء الجنوبي من الجزيرة؛ بينما لم يضم الجزء الشرقي من الجزيرة سوى تجمع سكنيٍّ صغيرٍ ومركزٍ تجاريٍّ حمل اسم «سونو» (فعل يعني «يتاجر») في اللغة المصرية القديمة، و«سيينى» في اللغة اليونانية، وصار «أسوان» في اللغة العربية - الاسم الحالي لمدينة أسوان الجميلة.

ويبلغ ارتفاع التل الأثري في إلفنتين حوالي ١٢ مترًا. ويرجع أقدم آثار الجزيرة إلى عصور ما قبل التاريخ (حضارة نقادة)، وإلى نفس العصر، تعود بدايات معابد المعبود «ساتت» سيدة إلفنتين التي سوف يضاف إليها من قبل ملوك مصر من عصور مختلفة. وفي عصر الأسرات المبكر، تم تأسيس قلعة في الجزيرة كنقطة حراسة بها حامية للإشراف على الحدود الجنوبية وللسيطرة على طرق التجارة. وفي عصر الأسرة الثالثة، بُنيَ هرم مدرج صغير الحجم في غرب الجزيرة، للتعبير الرمزي عن السُّلطة المركزية ممثلة في شخص الملك. ثم أُسِّسَ خلفه مبنى إداري وجبَّانة يعودان إلى عصري الدولتين القديمة والوسطى.

ولعلَّ من بين أبرز معالم الجزيرة، بقايا معبد المعبود خنوم سيد إلفنتين. ويعتبر المعبود خنوم من أهم الآلهة في مصر القديمة. وتزوج المعبودة «ساتت» سيدة إلفنتين، ثم أصبحت المعبودة «عنقت» - ربة جزيرة سهيل - ابنة لهما. وفي عصر الدولة الوسطى، بُنيَ معبد لخنوم، وأعيد بناؤه في عهد

الملك تحتمس الثالث من عصر الدولة الحديثة، وحدثت له إضافات عديدة في عهد الملك نختنبو الثاني في الأسرة الثلاثين، بينما زُينت البوابة الأثرية بنهاية عهد الإسكندر الرابع، فضلاً عن إضافات قام بها الملوك البطالمة والأباطرة الرومان. ويبلغ طول المعبد في مرحلته النهائية حوالي ١٢٣م. وفي عام ١٩٠٨، وجدَ الأثريون الفرنسيون جبَّانة للكباش المقدسة الخاصة بالمعبود خنوم بين معبدي خنوم وساتت. وفي العصر الصاوي (الأسرة ٢٦)، أُقيم مقياس للنيل بالجزيرة.

وفي عام ١٩٤٦، اكتشف الأثري المصري الكبير الراحل لبيب حبشي «مقصورة الكا» الخاصة بالموظف الشهير «حقا إيب» الذي كان مسؤولاً عن الرحلات الملكية الناجحة إلى الجنوب، الذي قُدس بعد وفاته على هذه الجزيرة، وأصبح وسيطًا بين البشر والآلهة من قبل ملوك ونبلاء الدولة الوسطى. ووُجد العديد من الآثار النذرية داخل مقصورة «حقا إيب».

أصل اكتشاف الجزيرة

بدأت الحفائر الأثرية في إلفنتين بواسطة بعثة ألمانية بين عامي ١٩٠٦ - ١٩٠٨ بحثًا عن البرديات الآرامية ثم تلتها بعثة فرنسية. وتشير البرديات الآرامية التي عُثرَ عليها في الجزيرة إلى وجود مرتزقة ومعبد لإلههم بداية من فترة الاحتلال الفارسي الأول لمصر في عام ٥٢٥ قبل الميلاد. وفي أوائل القرن السادس الميلادي، بُنيَت كنيسة صغيرة في فناء معبد خنوم. وبعد ذلك، انتشر الإسلام. ولا يمكن بدقةٍ تحديدُ نهاية العمران في إلفنتين؛ نظرًا لزوال الطبقات العليا من التل الأثري، وأغلب الظن أنها لا تبعد كثيرًا عن القرن التاسع أو العاشر الميلادي.

وبدايةً من عام ١٩٦٩ وإلى الآن، يقوم فريق أثري من المعهدين الألماني والسويسري في القاهرة بحفائر علمية منظمة تهدف إلى إعادة اكتشاف آثار إلفنتين وكتابة تاريخها الثري عبر ما يزيد عن ثلاثة آلاف عام. ويوجد بالجزيرة متحف إلفنتين الذي يضم عددًا من الآثار المتميزة، وتم تطويره حتى يكون مناسبًا لوسائل العرض المتحفي الحديثة، وبه ملحق يعرض أهم الآثار المستخرجة من الحفائر الحديثة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٧)
أسرار معبد قصر قارون

الفيوم القديمة

قصر قارون هو معبد موجود في موقع أثري بالقرب من بحيرة قارون بمحافظة الفيوم في مصر الوسطى. وقد سميت الفيوم باسم «مر ور» أي «البحر العظيم»، يوم أن كانت المياه تغمر كل منخفض الفيوم،. ثم سُمِّيت «شيدت» أي «أرض البحيرة المستصلحة» بناءً على عمليات استصلاح الأراضي من مياه البحيرة. وفي العصرين اليوناني والروماني، انتشرت عبادة الرب سوبك في منطقة الفيوم، والذي كان ربًا ورمزًا للفيوم، حتى إنه أُطلق على المنطقة اسم كروكوديلوبوليس أي «مدينة التمساح»؛ لوجود التماسيح بالبحيرة. وكان يطلق عليها أيضًا اسم «بر سوبك»، أي بيت الإله سوبك. وتغيَّر الاسم إلى أرسينوي؛ تكريمًا للمكة البطلمية الشهيرة أرسينوي الثانية، أخت وزوجة الملك بطلميوس الثاني فيلادلفوس. وجاء اسم الفيوم الحالي من الكلمة المصرية القديمة «با يم»، وتعني «اليم» أو «البحيرة»، التي أصبحت إلى فيوم في القبطية. وأضيفَتْ إليها أداة التعريف العربية بعد الفتح العربي فأصبحت «الفيوم».

دار حول معبد قصر قارون العديد من الروايات والأساطير حول سبب التسمية، وإلى أي عصر ينتمي، وحول أسرار الغُرَف بداخله، وحول معماره. وتبدأ الحكاية بأنه على بُعد ثمانية كيلو مترات شمال بحيرة قارون بمدينة الفيوم، جنوب غرب القاهرة، يقع معبد قصر قارون. والمعبد صغير. وبُنيَ المعبد من الحجر الجيري الأصفر والرملي؛ لذا يطلق عليه أحيانًا «معبد الحجر». وهو مصمَّم على الطراز المعماري المصري القديم. ومساحة المعبد تُقدَّر بنحو ١٨٠ مترًا مربعًا. ويبلغ ارتفاعه نحو ١٣ مترًا، وعرضُه نحو ١٩ مترًا، وطولُه نحو ٣٢ مترًا. ويتكون المعبد من ثلاثة أدوار. والدور الأول به فناء وصالات حجرات وقدس الأقداس. ويقود درجان على اليمين واليسار بالدور الأول إلى الدورين الثاني والثالث. ويغطي المعبد سطحٌ في حالٍ جيدةٍ. ومن فوق سطح المعبد يمكن مشاهدة مناظر رائعة للمنطقة. ويتدرَّج المعبد في الارتفاع والضيق حتى يصل الزائر إلى قُدس الأقداس، التي تُعَدّ أطهر وأهم بقعة في المعبد؛ بسبب وجود تمثال المعبود، أو المومياء الخاص به، أو قاربه المقدس. ولم يكن يُسمح بدخول هذا المكان إلا للملك أو كبير الكهنة نيابةً عن الملك. وذُكرَ أن المعبد كان يضم حوالي ٣٦٥ أو ٣٦٦ حجرة بعدد أيام السنة، غير أن الحقيقة غير ذلك، فإن عدد حجراته أقل من مائة حجرة. وكانت مخصصةً لاستخدامات كهنة المعبد في ذلك الوقت لتخرين كل ما

يخص المعبد والعاملين به من خدمة يومية لمعبودات المعبد وإقامة الطقوس والشعائر والعاملين عليها من كهنة المعبد. وكذلك كانت تُستخدم لتخزين الغلال.

وتضاربت الروايات حول تاريخ تشييد معبد قصر قارون، ما بين عصر الدولة القديمة وعصر الدولة الوسطى في مصر الفرعونية. والمعبد الأثري يعودُ تاريخُه إلى العصر البطلمي ضمن مدينة ديونيسوس التي تأسَّسَت في القرن الثالث قبل الميلاد، نسبةً إلى ذلك المعبود الإغريقي؛ لذا قد يخطئ البعض في إرجاع تاريخ إنشاء المعبد إلى مصر الفرعونية. واستمرت أهمية مدينة ديونيسوس خلال العصرين اليوناني والروماني. ونالت المدينة أهمية كبرى كونها محطةً لخروج القوافل إلى الواحات. أما عن الطريق الذي كان يربط المدينة التي يقع بها معبد قصر قارون وبين الإسكندرية، فتؤكد الحقائق العلمية على وجود طريقٍ بَريٍّ كان يصل بين الفيوم والإسكندرية. وكان يُستخدَم في نقل البضائع أيام الرومان من الفيوم ومدن وقرى مصر العليا إلى ميناء الإسكندرية ثم إلى العالم الروماني. وخُصِّصَ هذا المعبد الذي يطلق عليه البعض معبد قارون للمعبود سوبك - رع عند المصريين القدماء ورمزه التمساح، والمعبود ديونيسوس، أو باكوس أو باخوس، إله الخمر عند الإغريق القدماء، وملهم طقوس الابتهاج والنشوة، ومن أشهر رموز الميثولوجية الإغريقية.

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ

وجاءت تسمية معبد قصر قارون بسبب موقعه على الجانب الجنوبي الغربي لبحيرة قارون؛ نظرًا لأن الجزء اليابس من البحيرة كان يُطلَق عليه اسم «قرن». وتعددت الأجزاء اليابسة في بحيرة قارون. وسُمِّيَت بحيرة وقصر «قرون». ففي العصور الإسلامية، أطلقَ سكان المنطقة على المعبد تسمية قصر قارون؛ بسبب وجوده بالقرب من بحيرة قارون، والتي تم تسميتها بهذا الاسم؛ بسبب كثرة القرون والخلجان بها؛ فأطلق عليها في البداية بحيرة «القرون»، وحُرِّفت إلى بحيرة قارون. مع العلم أن هذه البحيرة في الأصل البقية الباقية من بحيرة موريس في التاريخ الفرعوني، والتي زارها أبو التاريخ المؤرخ الإغريقي الأشهر «هيرودوت»، عام أربعمائة وخمسين قبل ميلاد السيد المسيح عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم السلام. ولا صلة للمعبد بقارون الذي جاء ذكره في القرآن الكريم؛ والذي قال عنه الله سبحانه وتعالي بسم الله الرحم الرحيم فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ صدق الله العظيم (سورة القصص: آية ٨١).

ظاهرة تعامد الشمس

وتعتبر ظاهرة تعامُد الشمس على المعبد صبيحة الحادي والعشرين من شهر ديسمبر من كل عام ظاهرة فلكية معمارية هندسية فريدة حيث تتعامد الشمس على قُدس أقداس المعبد تزامنًا مع بداية الانقلاب الشتوي، الذي يعد إيذانًا ببدء فصل الشتاء في نصف الكرة الشمالي. وتشبه ظاهرة تعامد أشعة الشمس على قدس الأقداس بمعبد قصر قارون ظاهرة تعامد الشمس مرتين من كل عام على وجه نجم الأرض الملك الأشهر رمسيس الثاني في معبده الكبير في «أبو سمبل» في أقصى جنوب مصر. وكان عددٌ من الباحثين الأثريين قد قاموا بنشر أبحاث عن تعامُد الشمس على قدس الأقداس في المعبد في هذا التاريخ من كل عام، والذي يوافق الانتقال الشتوي. وأكدت الدراسات الأثرية الحديثة ظاهرة تعامد الشمس على قدس الأقداس بمعبد قصر قارون في يوم ٢١ ديسمبر من كل عام. وتم تشكيل لجنة من علماء الآثار، والتي أكدت ما جاء بالدراسة، وأن الشمس تتعامد في هذا التوقيت من كل عام. ويستمر التعامد حوالي ٢٥ دقيقة. ولقد تأكدت اللجنة من صحة تعامد الشمس.

وتبدأ الظاهرة ببداية تساقط أشعة الشمس على قدس الأقداس الخاص بالمعبد، وتبدأ الأشعة سطوحها من أعلى لأسفل. وكان قدس الأقداس هذا المعبد يحتوي على تمثال الإله المصري القديم سوبك (أو «سوخوس» في اليونانية) الذي كان في هيئة تمساح أو تحديدًا في هيئة الإله سوبك - رع، والذي كان يظهر هنا في هذا المعبد على هيئة رجل برأس تمساح، ومع ملك بطلمي غير معروف الاسم. ويعد هذا النقش الوحيد في المعبد. ثم بعد ذلك، يتنقل شعاع الشمس إلى المقصورة الموجودة على يمين الزائر للمعبد. ولا يصل شعاع الشمس إلى المقصورة اليسرى الموجودة على يسار الزائر؛ وذلك نظرًا لأنه كان توجد بها مومياء المعبود سوبك، الذي كان من الضروري ألا تشرق الشمس عليها حتى لا تفسدها أو تعرِّضها لأي أذى، وأن تظل ساكنةً في الظلام حيث عالم الموتى الذي كان يحكمه رب الموتى وسيد العالم الآخر المعبود الأزلي أوزير. ومن المعروف أن الشمس تشرق فقط على عالم الأحياء وتعيدهم إلى الحياة مرة أخرى وفقًا لمعتقدات المصري القديم.

وبدأ الاحتفال بهذه المناسبة التي أدرجت محافظة الفيوم على الخريطة السياحية المصرية بقوة بداية من عام ٢٠١٢ م حين تم التأكد من الدراسة التي أُجريت على هذا المعبد. ورصدت هذه الظاهرة في عامي ٢٠٠٩ و٢٠١٠ م. وأكَّدَها علماء آثار وآثاريو منطقة آثار الفيوم وعلماء الفلك ومسؤولو السياحة بالمحافظة. ومن المحتمل أن الشمس أيضًا قد تكون تتعامد على

نفس المعبد في تاريخ الانقلاب الصيفي في ٢١ يونيو، غير أن الدراسات ما تزال تُجرَى في هذا الصدد، ولم تُؤكد بعد.

ومن المعروف أنه منذ اكتشاف ظاهرة تعامُد الشمس على معبد قصر قارون، فإن محافظة الفيوم توليها اهتمامًا بالغًا، وتماثل في أهميتها تعامد الشمس على قدس الأقداس بمعبد الكرنك في الأقصر وغيرها من ظواهر تعامُد الشمس على عددٍ كبيرٍ من المعابد والمقاصير في طول مصر وعرضها. ويقام هذا الاحتفال كلَّ عامٍ على التوالي. وتسعى محافظة الفيوم إلى تركيز الانتباه على هذه الظاهرة الفلكية في إطار جهودها الدائمة لتنشيط حركة السياحة والتعريف بما تزخر به المحافظة من إمكانيات سياحية وأثرية وثقافية وبيئية، والتي تؤهِّلها لأن تحتل مكانة متميزة على خريطة السياحة المحلية والعالمية. وتحدث احتفالية كبيرة بمناسبة هذه الظاهرة المهمة، والتي تدعو إليها محافظة الفيوم، وتشارك فيه وزارة السياحة والآثار وغيرها من مؤسسات وأجهزة الدولة المعنية. وتتضمن الاحتفالية عروضًا موسيقية لفِرَق للآلات الشعبية والفنون الشعبية وإضافة إلى عروض التنورة والعروض الفلكلورية والشعبية المصرية الجميلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٨)

المدينة الذهبية المفقودة

في يوم الخميس ٨ إبريل عام ٢٠٢١، تم الإعلان عن اكتشاف البعثة المصرية برئاسة الدكتور زاهي حواس المدينة المفقودة تحت الرمال، والتي كانت تُسمَّى «صعود آتون». ويعود تاريخها إلى عهد الفرعون الشمس، الملك أمنحتب الثالث. واستمر استخدام المدينة من قِبَل الملك توت عنخ آمون، أي أنها تاريخها يعود إلى أكثر من ٣٠٠٠ عام مضت.

وبدأ العمل في هذه المنطقة للبحث عن المعبد الجنائزي الخاص بالملك توت عنخ آمون؛ لأنه تم العثور على معبديّ الملك آي والملك حورمحب من قبل. وعثرت البعثة على واحدة من أكبر المدن في مصر القديمة، والتي أسسها، أحد أعظم حكام مصر، وهو الفرعون الشمس، أو الملك أمنحتب الثالث، الملك التاسع من الأسرة الثامنة عشر، والذي حكم مصر من عام ١٣٩١ إلى ١٣٥٣ ق.م. وقد شاركه ابنه ووريث العرش المستقبلي الملك الشهير أمنحتب الرابع، أو الملك أخناتون بعد ذلك، آخر ثماني سنوات من عهده المديد.

وتعتبر هذه المدينة هي أكبر مستوطنة إدارية وصناعية في عصر الإمبراطورية المصرية في عصر الدولة الحديثة على الضفة الغربية لمدينة الأقصر الأثرية العريقة، حيث عُثر بالمدينة على منازل يصل ارتفاع بعض جدرانها إلى نحو ثلاثة أمتار، ومقسَّمة إلى شوارع. وتمَّ الكشف عن جزءٍ من المدينة يمتد غربًا، حتى صارت منطقة دير المدينة الخاصة بالعمال بناة مقابر وادي الملوك ووادي الملكات والأشراف جزءًا من المدينة المكتشفة حاليًا.

وبدأت أعمال التنقيب في شهر سبتمبر من عام ٢٠٢٠ م. وفي غضون أسابيع قليلة، بدأت تشكيلات من الطوب اللبن بالظهور في جميع الاتجاهات. وكانت دهشة كبيرة للبعثة الأثرية القائمة بأعمال الحفائر، حينما اكتشفت أن الموقع هو مدينة كبيرة في حالة جيدة من الحفظ، ذات جدران شبه مكتملة، وغرف مليئة بأدوات الحياة اليومية. وقد بقيت الطبقات الأثرية على حالها منذ آلاف السنين. وتركها السكان القدماء كما لو أنها كانت بالأمس القريب.

وقالت الدكتورة بيتسي براين، أستاذة علم المصريات بجامعة جونز هوبكنز بالولايات المتحدة الأمريكية: «إن اكتشاف هذه المدينة المفقودة هو ثاني اكتشاف أثري مهم بعد اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون.»

إن اكتشاف هذه المدينة، لم يمنح العلماء لمحةً نادرةً عن حياة قدماء المصريين في عصر الإمبراطورية المصرية القديمة في عصر الدولة الحديثة

فحسب، ولكنه أيضًا سيساعد العلماء في إلقاء الضوء على أحد أعظم الألغاز في التاريخ، ولماذا قرَّر الملك إخناتون وزوجته الملكة الجميلة الشهيرة نفرتيتي ترك العاصمة التقليدية طيبة، أو الأقصر الحالية، والانتقال إلى مدينة جديدة أو إلى عاصمة جديدة، وهي «آخت آتون» أو «أفق آتون» في منطقة تل العمارنة في محافظة المنيا في مصر الوسطى.

وتقع منطقة الحفائر بين معبد الملك رمسيس الثالث في مدينة هابو ومعبد الملك أمنحتب الثالث في منطقة كوم الحِيتان في البَرّ الغربي لمدينة الأقصر والذي كان يتصدره تمثالُ ممنون المعروفين. وقد بدأت البعثة المصرية العمل في هذه المنطقة بحثًا عن معبد الملك توت عنخ آمون الجنائزي. وكان الملك آي، خليفة الملك توت عنخ آمون هو من قام ببناء معبده فوق مكان يقع إلى الجانب الجنوبي لمعبد الملك رمسيس الثالث في مدينة هابو، والذي تم بناؤه لاحقًا في عصر الرعامسة بعد عهد الملك آي.

وكان الهدفُ الأوَّلُ للبعثة هو تحديد تاريخ هذه المدينة، حيث تم العثور على كتابات هيروغليفية على أغطية خزفية لأواني النبيذ. وتخبر المراجع التاريخية أن المدينة كانت تتألف من ثلاثة قصور ملكية للملك أمنحتب الثالث، بالإضافة إلى المركز الإداري والصناعي للإمبراطورية المصرية القديمة. وقد أكد عددٌ كبيرٌ من الاكتشافات الأثرية على تاريخ المدينة مثل الخواتم والجعارين والأواني الفخارية الملونة والطوب اللَّبن الذي يحمل أختام خرطوش الملك أمنحتب الثالث. وبعد سبعة أشهر فقط من التنقيب، تم الكشف عن عدة مناطق أو أحياء بتلك المدينة. وعثرت البعثة في الجزء الجنوبي على مخبز ومنطقة للطهي وأماكن إعداد الطعام كاملة مع الأفران وأواني التخزين الفخارية. وكان يقوم على الخدمة بها عددٌ كبيرٌ من العمال والموظفين.

أما المنطقة الثانية، والتي تم الكشف عنها جزئيًّا، فهي تمثِّل الحي الإداري والسكني الذي ضم وحدات أكبر ذات تنظيم جيد. وهذه المنطقة مسيجة بجدار متعرج، مع نقطة دخول واحدة فقط تؤدي إلى ممرات داخلية ومناطق سكنية. وهذا المدخل الوحيد يجعل العلماء يعتقدون أنه كان يمثِّل نقطة ارتكاز أمني نوعًا ما حيث كانت لها القدرة على التحكم في الدخول والخروج إلى المناطق المغلقة. وتعتبر الجدران المتعرجة من العناصر المعمارية النادرة في العمارة المصرية القديمة. وقد اُستخدمت بشكل أساسي في نهاية عصر الأسرة الثامنة عشرة.

أما المنطقة الثالثة فهي ورشة العمل وتضم في إحدى جهاتها منطقة إنتاج الطوب اللَّبِن المستخدم لبناء المعابد والملحقات. ويحمل الطوب أختامًا بها خرطوش الملك أمنحتب الثالث أو «نب ماعت رع»، أي «سيد عدالة الإله رع». وتم اكتشاف عدد كبير من قوالب الصب الخاصة بإنتاج التمائم والعناصر

الزخرفية الدقيقة. ويُعَدُّ هذا دليلاً آخر على النشاط الواسع في المدينة لإنتاج زخارف كل من المعابد والمقابر. وعثرت البعثة في جميع أنحاء مناطق الحفائر على العديد من الأدوات المستخدمة في النشاط الصناعي، مثل أعمال الغزل والنسيج. كما تم اكتشاف ركام المعادن والزجاج، لكنه لم يتم اكتشاف المنطقة الأساسية لمثل هذا النشاط بعد. كما تم العثور على دفنتين غير مألوفتين لبقرة، أو ثور، داخل إحدى الغرف. وما يزال البحث جاريًا لتحديد طبيعة والغرض من مثل هذه الدفنتين. كما تم العثور على دفنة رائعة لشخص، وذراعاه ممدودتان إلى جانبه، وبقايا حبل ملفوف حول ركبتيه. وبعد موقع ووضع هذا الهيكل العظمي غريب نوعًا ما. وما يزال هناك المزيد من البحث حول هذا الأمر.

كما تم العثور على إناء يحتوي على جالونين من اللحم المجفف أو المسلوق (حوالي ١٠ كجم). ويحمل كتابات قيمة يمكن قراءتها كما يلي: «السنة ٣٧، لحوم مسلوقة لعيد حب سد الثالث من جزارة حظيرة «خع» التي صنعها الجزار إيوي». وهذه المعلومات القيمة لا تعطي فقط اسمي شخصين كانا يعيشان ويعملان في المدينة، بل تؤكد أن المدينة كانت نشطةً في زمن مشاركة الملك أمنحتب الثالث مع ابنه الملك أمنحتب الرابع أو الملك أخناتون بعد ذلك. كما عثرت البعثة أيضًا على نَصٍّ مكتوب على طبعة ختم يقرأ كما يلي: «جم با آتون». وهذا اسم المعبد الذي بناه الملك أمنحتب الرابع أو الملك أخناتون لمعبود الجديد الإله آتون داخل معابد الكرنك بيت دار رب الأرباب آمون أو آمون رع متحديًا الإله آمون رع وكهنته في عقر دارهم، ومستهلاً الصراع والصدام مع الإله آمون وكهنته مما جعله يترك طيبة ويرحل إلى مدينته وعاصمته الجديدة آخت آتون أو تل العمارنة في محافظة المنيا في وسط صعيد مصر.

كما تم الكشف عن مقبرة كبيرة، لم يتم تحديد مداها بعد. واكتشفت البعثة مجموعة من المقابر المنحوتة في الصخور بأحجام مختلفة، والتي يمكن الوصول إليها من خلال سلالم منحوتة في الصخر. ومن المعروف أن هناك سمة مشتركة لبناء المقابر في وادي الملوك ومقابر النبلاء. وما يزال العمل جاريًا. وتتوقع البعثة الكشف عن مقابر أخرى جديدة، لم تمسها يدٌ، قد تكون مليئة بالأسرار. وتتيح أعمال التنقيب المستمرة لعلماء الآثار الوصول إلى طبقة النشاط الأصلية للمدينة حيث تم كشف النقاب عن معلومات تضيف إلى التاريخ وتعطي نظرة ثاقبة فريدة عن عائلة الملك توت عنخ آمون. ويقدِّم اكتشاف المدينة المفقودة أيضًا فهمًا أعمق للحياة اليومية للمصريين القدماء من حيث أسلوب بناء وديكورات المنازل والأدوات التي استخدموها وكيفية تنظيم العمل. وقد تمَّ الكشف عن ثُلث المنطقة فقط، إلى الآن. وتواصِل البعثة أعمال التنقيب بما في ذلك المنطقة التي تم تحديدها

على أنها الموقع المحتمل لمعبد الملك توت عنخ آمون الجنائزي. وهناك الكثير من المعلومات حول المقابر والمعابد، ولكن هذه هي المرة يتم الكشف عن أسرار عن حياة ملوك عصر العمارنة وما قبله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الثاني

مصر في المتاحف العالمية

تفاصيل رحلات الآثار المصرية إلى الخارج

(١)

مصر في متحف اللوفر

يعتبر متحف اللوفر واحدًا من أهم وأعرق المتاحف العالمية، والذي شيد في البداية كقلعة تحمي مدينة باريس، وأصبح مقرًا للحكم، ثم متحفًا خالدًا يحفظ للبشرية ذاكرتها عبر الأزمان.

ويعد الجناح المصري في اللوفر من أبرز أجنحته، وبعد التوسعات الأخيرة التي وُصفَت بـ «الثورة» زاد عدد القطع المعروضة إلى حوالي خمس وخمسين ألف قطعة أثرية، وتضاعفت مساحة العرض فبلغت أكثر من أربعة آلاف وخمسمئة متر، تمتد عبر تسع عشرة صالة في المتحف، ليصبح بذلك أجمل وأغنى المتاحف المصرية في العالم، لدرجة أنه وُصفَ من قِبَل المختصين بـ «الجناح الأسطوري».

أصل الفكرة

جاءت البداية، في الخامس عشر من مايو ١٨٢٦، عندما أصدر شارل العاشر أمرًا ملكيًا بإنشاء «الجناح المصري» في اللوفر، وتعيين جان - فرانسوا شامبليون أمينًا عامًا له، تقديرًا لجهوده الدؤوبة ومناداته المستمرة بإنشاء متحف للآثار المصرية.

وكانت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت ١٧٩٨ - ١٨٠١، أُولَى محطات انتقال الآثار المصرية إلى فرنسا؛ إذ قام أفرادها بجمع ما استطاعوا جمعه من آثار مصر ليحملوها إلى فرنسا. لكن حالفهم سوء الحظ هذه المرة، فسقطت كل هذه الآثار التي جمعوها، بما فيها حجر رشيد الشهير، في أيدي أعدائهم الإنجليز بعد هزيمة عسكرية مريرة. وانتقلت تلك الآثار إلى إنجلترا، التي أسَّست بها واحدًا من أروع أجنحة المتحف البريطاني في لندن، وأعني «الجناح المصري».

وجاءت أولى مجموعات الآثار المصرية إلى اللوفر من صديق نابليون الشخصي وآخر مدير للمتحف الإمبراطوري الرسام الفرنسي المعروف فيفان دنيون، واشتملت على تماثيل ملكية عدة، ودخلت المتحف في عام ١٧٩٣. وتبعتها ١٦ قطعة أخرى في عهد لويس السابع عشر.

وعندما اعتلى شارل العاشر العرش، عُرضت مجموعة ضخمة من التماثيل المصرية القديمة احتفاءً بهذه المناسبة، واشتملت على تمثال المعبودة إيزيس الضخم من فيلا الإمبراطور الروماني هادريان، وثلاثة من تماثيل الكتلة للنبلاء «آخ - آمون - رع» و«بادي - آمون - أوبت»، و«واح - إيب - رع»،

والتمثال الجاثي للمدعو «ناخت - حور - حب» وتمثالين للملكين «نفرتيس الأول» و«أكوريس» من الأسرة ٢٩. وأحضر الكونت دي فوربي التماثيل الجميلة للربة «سخمت» الممثلة في هيئة أنثى لها رأس لبؤة. وأهدى ابن تاجر الآثار بيير بول تدنا - دوفن التابوت الحجري الأول لـ «أيونا» إلى لويس الثامن عشر.

وحتى قبل إنشاء الجناح المصري في اللوفر، كان شامبليون يحاول كسب الرأي العام لصالحه من أجل الاعتراف الكامل بالفن المصري القديم. فحاول قدر استطاعته أن يحضر روائع هذا الفن إلى باريس كي يقنع المسؤولين الفرنسيين بجمال وعظمة الحضارة المصرية القديمة، التي هي - في رأيه - أعظم حضارات الدنيا قاطبة. وفي العام ١٨٢٤، فوض المتحف شامبليون شراء مجموعة «دوران» التي بلغ عددها حوالي ٢١٤٩ قطعة أثرية، لتصبح بحق أولى مجموعات الآثار المصرية الضخمة التي تدخل اللوفر، ووصفها أمين الآثار المسؤول عن تقييمها الكونت كلار قائلاً: «يجعل تنوع وروعة هذه الآثار - والتي تشكِّل بمفردها معرضًا جميلاً، يظهر كل شيء يتعلق بمصر - منها مجموعة صالحة للفن والتعلم، وليست أقل أهمية من تلك التماثيل الضخمة التي تملأ اللوفر، فهي عن ذلك البلد المدهش المتفرد مصر». فعلاوة على حوالي ١٢٢٥ قطعة من التمائم والفنون الصغرى والموميأوات والأواني والحلي، اشتملت المجموعة على العديد من التوابيت المتميزة والمعروفة بـ «توابيت دوران» ولوحات «سنوسرت» و«أوزير - رع» والتمثال النادر لـ «مري آمون» والتماثيل الصغيرة لـ «آمون - إم - أوبت» و«تامروت».

وصدَّق شارل العاشر على أمر شراء هذه المجموعة في الرابع عشر من ديسمبر ١٨٢٤، وكانت لحظة فارقة في تاريخ الجناح المصري في اللوفر. ونظرًا لضخامة المجموعة وتميزها، اقترح التقرير الأولى المرفوع إلى السُّلطات الفرنسية إنشاء جناح خاص للآثار المصرية في اللوفر، على أن يُطلق عليه اسم «متحف شارل العاشر».

وعندما أقدم القنصل الفرنسي العام في مصر وجامح الآثار الشره، برناردين دروفتي على بيع مجموعته الخاصة الهائلة، والتي جمعها عبر سنوات عمله الطويلة في مصر، رفضت فرنسا شراءها؛ نظرًا لمغالاته في ثمنها. وعلى الفور، اشتراها ملك سردينيا شارلس فليكس وعرضها في متحف «تورين» في إيطاليا. وندم شامبليون أشد الندم على ضياع هذه المجمعة من أيدي اللوفر.

وعبر بحثه الدؤوب عن مجموعات أخرى، اكتشف شامبليون وجود مجموعة ضخمة في ليفورنو في إيطاليا، كوَّنها أكبر لصوص الآثار المصرية في العصر الحديث، قنصل بريطانيا العام في مصر هنري سالت في الفترة من ١٨١٩ -

١٨٢٤. وكان سالت أعظم ناهبي الآثار المصرية، فنهب معظم جبَّانات الأقصر ومعابد الدلتا، فطلبها المتحف البريطاني لما بها من مجموعة من التماثيل الضخمة والنقوش الجميلة في العام ١٨١٨. فشحذ شامبليون فصاحته واستخدم ملكاته الخاصة للتأثير على شارل العاشر وحثه على شرائها، حتى يفوت فرصة الانتفاع بها على المتحف البريطاني. فكتب إلى الدوق دي بلاكا الذي دافع بدوره عن شامبليون وقضيته العادلة، مستغلاً صداقته للملك ومطالبًا إياه بالآتي: «يجب علينا أن نحصل على معظم المجموعات الكاملة والآثار الكبيرة؛ إذ تستدعي متطلبات دولتنا دولة العلم أن ننشئ متحفًا حقيقيًا للآثار المصرية شاملاً كل المدارس والأساليب والأحجام، وعلى فهذا، فإن مجموعة ليفورنو كاملة، وعما أعرفه عنها، أنها فرصة حقيقية لن تُعوَّض كي تكوِّن فرنسا متحفًا مصريًا في اللوفر».

ولفت الأمر الانتباه، وأثار اهتمام الجميع، بمن فيهم شارل العاشر نفسه الذي أصدر مرسومًا ملكيًا بالشراء على الفور في ٢٣ فبراير ١٨٢٦، وكوفئ شامبليون على جهوده بتعيينه أمينًا عامًا للجناح المصري الجديد في اللوفر في الخامس عشر من شهر مايو من العام نفسه.

وبمراجعة قوائم اللوفر المعاصرة، فإن مجموعة «سالت» الضخمة اشتملت على ٤٠٤٠ رقم دخول، وكانت تملك من الروعة والتنوع ما يصعب المفاضلة بينها. ومن أبرز محتوياتها، تمثال «أبو الهول» الضخم من تانيس في شرق الدلتا المصرية، والذي يُعَد من أهم معالم الجناح المصري في اللوفر، وحوليات الملك تحتمس الثالث، وتمثال سوبك حتب الرابع، وتمثال أمنحتب الرابع/ أخناتون، والأشكال المتنوعة لعلاقة عنخ (الحياة) الهيروغليفية، والتصوير الساحر للسيدة ناي. والطقوس الجنائزية المصورة بدقة على تابوت الملك رمسيس الثالث من الجرانيت الوردي، والآثار الخارجة من المقابر الأخرى، والعديد من مناظر الحياة اليومية المصورة على أدق الآثار وأصغرها حجمًا، ولوحات مقبرة نسو الرائعة. وتمثل المجموعة، في عمومها، لوحة بانورامية شديدة التفاصيل لفنون وخصائص الحضارة المصرية القديمة. ويبرر تنوعها وضخامتها اللافتين حماسة شامبليون الزائدة لاقتناصها من بين أنياب الإنجليز.

وفي العام ١٨٢٧م، دخلت مجموعة القنصل دروفتي الثانية المهمة اللوفر، وأهدى شارل العاشر الناووس الجرانيتي الضخم للملك أحمس الثاني (أمازيس) وباع له التابوت البازلت الضخم الآخر. وكان دروفتي تبع نابليون في حملته الشهيرة على مصر، وأصبح قنصلاً عامًا لفرنسا في مصر في عام ١٨١٤، ومرة ثانية في الفترة (١٨٢٠ - ١٨٢٩). وكان جامعًا نهمًا للآثار المصرية، واستخدم في ذلك الوسائل كافة، ومن بينها وسائل الحفر الحديثة، أكثر من

معاصريه لصوص الآثار الآخرين، للتنقيب ونبش الآثار. وكان مساعده ومستشاره الرئيسي المثّال جان - جاك ريفو، الذي ساعدت موهبته الفنية وخبرته بالفنون دروفتي في كثير من قراراته. ورفض لويس الثامن عشر مجموعته الأولى، واشترى فلك البروج (الزودياك) من سقف معبد دندرة في جنوب مصر بثمن باهظ على الفور. وبوصول هذا الأثر الفريد باريس، سار في موكب هائل، كموكب الغزاة المنتصرين. وصار حديث المجتمع الأوروبي عمومًا، والباريسي على وجه الخصوص.

وازدادت سعادة شامبليون عند تلقيه خبر الشروع في بيع مجموعة دروفتي الثانية العام ١٨٢٧. فزلّزل الأرض وهزَّ السماء، ليحصل عليها الجناح المصري بأي شكل وبأي ثمن. وفي أغسطس ١٨٢٧، أهدى القنصل الماكر متحف اللوفر هدية مكونة من عددٍ من مجوهرات الفراعنة الساحرة. كان من بينها الخاتم الأروع المزيَّن بالخيول الجامحة. ولم تستغرق عملية البيع وقتًا طويلاً؛ إذ تمت في الحادي عشر من أكتوبر. وفي الرابع والعشرين من الشهر نفسه، تسلم شامبليون الكنوز مشتملة على روائع الذهب والفضة وكأس رمز المعرفة والحكمة المصري المعبود تحوت، ودخلت البقية الباقية اللوفر في سبتمبر ١٨٢٨. واشتملت مجموعة الذهب على تماثيل رمسيس الثاني، وسوبك حتب الضخمة، ورأس صغير للملك أمنحتب الثالث، والد أخناتون، وأوستراكات (شقفات فخارية) جميلة لوجه أحد الملوك الرعامسة (الأسرتان ١٩ و٢٠)، وعدد من تماثيل الأفراد الكبيرة الضخمة، وآلاف من لوحات المعبود حورس السحرية. وتوابيت «جد - خونسو - إيوف - عنخ»، وثلاثة توابيت حجرية ضخمة، تشكل في مجملها بانوراما عامة عن الحياة الاجتماعية في مصر القديمة.

وفي الفترة من (١٨٢٨ - ١٨٢٩)، سافر شامبليون إلى مصر، وعاد محمَّلاً بكنزٍ ثمينٍ من الآثار المصرية قُدِّر بأكثر من مئة قطعة مدهشة، اشتملت على التابوت البازلتي للكاهن «جدحور»، والنقش الرائع للملك سيتي الأول (والد الملك رمسيس الثاني) والمعبودة حتحور من معبده في أبيدوس في صعيد مصر الخالد، والتمثال الأعظم لـكاروماما من الأسرة ٢٥، والمنضدة العاجية الشديدة الجمال للملك بيبي الأول من الأسرة السادسة، وأجزاء من أساسات معبد الدير البحري للملكة حتشبسوت في البر الغربي لمدينة الأقصر.

وفي مارس ١٨٣٢ مات جان - فرانسوا شامبليون (١٧٩٠ - ١٨٣٢) بعد حياة قصيرة تبلغ ٤٢ عامًا حافلة بالعطاء لبلده فرنسا، وكانت مليئة بالجمع المتواصل لآثار مصر، تاركًا الجناح المصري في اللوفر عامرًا بأكثر من تسعة

آلاف قطعة أثرية متنوعة، الذي تعرَّض من بَعده للإهمال والتدمير، فعثر على نقش الملك سيتي الأول سالف الذكر مهشمًا في التراب.

وجاء من بَعده جان - جوزيف دوبوا، الذي كان يُقطّع مناظر البرديات الجنائزية ويشّرح النقوش البارزة، وكان كسلفه عليمًا بأهمية المجموعات المصرية الخاصة لدى القناصل الأجانب في مصر، فطلب شراء أكبر قدر ممكن من مجموعة القنصل الفرنسي العام في الإسكندرية جان - فرانسوا ميمو، خليفة دروفتي. واُشتريت بالفعل ١٥٨ قطعة أثرية بثمن زهيد، واشتملت على قواعد وتيجان أعمدة معبد أبيدوس الملونة، الأروع في الحضارة المصرية القديمة. والأعمدة الخارجة من مقبرة «أختا» وتماثيل المدعو «سبا» وزوجه «نسا» من الحجر الجيري الملون الرائعة.

وأعطى تعيين عالم الآثار المعروف والأستاذ بـ «الكوليج دي فرانس» إيمانويل دي روجيه رئيسًا للجناح المصري، دفعة جديدة للجناح. ففي العام ١٨٥٣م، طلب مجموعة كلوت بك المهمة، والتي اشتملت على ٢٦٧٨ قطعة أثرية، وكان أنطوني - باتلمي كلوت يشغل منصب كبير أطباء محمد علي باشا، ونجح، بحكم موقعه، في تكوين مجموعة ضخمة من الآثار المصرية اشتملت على التوابيت الحجرية والخشبية الكبيرة وحوالي ٢٥٠ تمثالاً حجريًا ولوحة، ومجموعة كبيرة من البرونز، مع تماثيل رائعة للقطة المقدسة باستت، و٢٦ مومياء للحيوانات المقدسة، والعديد من الآثار الجنائزية والدنيوية. وقد جاءت المقتنيات من أماكن مختلفة، فجاء نقش مر - إيب النادر من الدولة القديمة من منف، من قرى محافظة الجيزة الحالية، فيما جاءت الأواني الكانوبية (أواني حفظ أحشاء المتوفى) الخاصة بالملك إنتف الثاني (من الأسرة الحادية عشرة) والبرديات البطلمية من الأقصر.

وبين الأعوام (١٨٥٠ - ١٨٧٠)، دخلت اللوفر مجموعات أخرى قادمة من مصر عن طريق الشراء والهبات. وكان أكثر أصحابها من الديبلوماسيين الأجانب في مصر والذين كانوا يهدونها، بعد عودتهم، إلى المتحف. ففي العام ١٨٥٧، دخلت لوحات القنصل السويدي الأرمني الأصل جيوفاني أنستازي، ومجموعات شافاليه دي بالين في العام ١٨٥٩، وأشيل فول في ١٨٦٠، والكونت تسيكيفيسكز في ١٨٦٢. وفي العام ١٨٦٣، آثار نائب القنصل الروسي سليمان وآثار القنصل الفرنسي دلابورت. وفي العام ١٨٦٧، آثار ألفونس ريافيه. والمجموعة الكاملة لروسي بك المكونة من ١٢٠٨ قطعة أثرية في العام ١٨٦٨.

وبانتهاء فترة القناصل المزدهرة في نقل آثار مصر إلى اللوفر والتي كوَّنَت اللوفر المصري بكل تأكيد، تغلق فرنسا فصلاً في مسلسلها الشهير وتفتح آخر. فلم تحتَر طويلاً، وابتكرت طريقة جديدة لمواصلة مسيرتها، بتزويد

المتاحف الفرنسية بالآثار المصرية، فكانت عملية تقسيم الآثار المستخرجة من المواقع الأثرية أو نقلها كلية أو أهم ما بها.

ففي الفترة من (١٨٥٢ - ١٨٥٣) تسلَّم اللوفر أولى دفعات الآثار المصرية الخارجة من سرابيوم منف (مدافن العجل أبيس المقدس)، كجزء من الاستراتيجية الفرنسية الجديدة لنقل الآثار الناتجة عن الحفائر، وهي وسيلة اتبعت في إحضار الآثار المصرية إلى اللوفر.

وخصص ملحق القسم المصري في اللوفر أوجست ماريت حياته كلها لإرسال الآثار المصرية إلى فرنسا، وحضر إلى مصر موفدًا من قبل متحفه لشراء عددٍ من المخطوطات القبطية، فقام بحفائر غير منظمة في سقارة مستعينًا بإرشادات الأهالي وبالأموال التي كانت معه، فعثر على السرابيوم، فأخطر متحفه بذلك، فمدّه على الفور بالمال الوفير لمواصلة عملية نقل الآثار المصرية إلى اللوفر.

وأسَّس ماريت مصلحة الآثار ومتحف بولاق بضغطٍ من الحكومة الفرنسية على حاكمي مصر سعيد باشا والخديو إسماعيل على التوالي، كذريعة لإبقاء رجلهم في مصر، حتى يحصلوا على ما يريدون من آثار.

ويكفي أن نعرف أن ماريت وحده أرسل إلى فرنسا (ماريت باشا بعد ذلك، والذي أُطلقَ اسمه على أحد أكبر شوارع القاهرة، والمدفون تكريمًا له في حديقة المتحف المصري) حوالي ستة آلاف قطعة أثرية من جبانة سقارة جنوب أهرام الجيزة وحدها، فما بالنا بالمناطق الأخرى، حتى نعلم مدى الخسارة التي ألحقها هذا الرجل بالآثار المصرية والتاريخ المصري القديم، رغم ما يشيع عن خدماته الجليلة لآثار مصر؛ فمارييت أخرج من مدافن العجل أبيس المقدس وحدها، ألف لوحة وتماثيل العجل أبيس الأندر في الحضارة المصرية القديمة كلها، وتماثيل الإله بِس رمز المرح والضحك، ومئات من تماثيل الأوشابتي (التماثيل المجيبة)، وعددًا كبيرًا من قطع سبقت عهد الملك رمسيس الثاني وابنه الأكبر الأمير خع - إم - واست خلال عمليات نقل الآثار المستمرة من السرابيوم. واكتشف ماريت عددًا من المقابر من عصر الأهرامات. وفي إحداها، عثرَ على تمثال الكاتب المصري الجالس الشهير، أحد أبرز معالم اللوفر من عصر الأسرة الخامسة، والذي لو وُضعَ في كفة وآثار اللوفر كلها في كفة، لرجحت كفته، كما يقر بذلك معظم العلماء، وتزين كل هذه الآثار متحف اللوفر الآن.

وفى الفترة من (١٨٤٩ - ١٨٩٤)، حدثَتْ زيادة عظيمة في حجم المجموعة نتيجة للتغيرات الإدارية الكبيرة الناجمة عن ثورة ١٨٤٨ فحاول مدير اللوفر فيليب - أغسطس جانرو تطبيق برنامج طَموح لإعادة تنظيم المتحف وتزويده

بالمقتنيات الجديدة. وبنهاية القرن التاسع عشر قلت عمليات بيع الآثار الكبرى، فتعرَّض الفرنسيون لمأزق خطيرٍ سرعان ما تغلَّبوا عليه، فما فعله رفيلو بالاعتماد على مجموعات كبيرة من وثائق العصور المتأخرة لتزويد المتحف بها، كان الحل الأمثل لتلك المشكلة، وبالرغم من أن هذه الوثائق أقل جاذبية وإثارة للجمهور، فإن هذه النصوص الديموطية والقبطية واليونانية حوَّت ثروة كبيرة من المعرفة عن خصائص معينة في الحضارة المصرية.

وبين (١٨٧٩ - ١٨٩٦)، دخل المتحف عددٌ كبير من البرديات وأوستراكات والنصوص الخارجة من المومياوات، وتمثِّل الآن في مجموعها واحدة من أكبر المجموعات في هذا المجال في العالم كله. وعن طريق الشراء من الأفراد، دخل اللوفر عددٌ متميِّزٌ من الآثار المصرية. ففي العام ١٨٧٢، تم شراء مجموعة الملك أوسركون الأول الرائعة، من تاجري العاديات رولن وفواردن بمبلغ باهظ، حوالي خمسة وعشرين ألف فرنك فرنسي. وحصل اللوفر على ثلاث قطع حُليّ من مبيعات الأمير نابليون، وشملت صدرية الملك أحمس الأول محرِّر مصر من الهكسوس. وفي العام ١٨٨٣ دخلت المتحف التماثيل البرونزية الكبيرة من مجموعة بوسنو وتمثال فرس النهر القيشاني الأروع. وفي العام ١٨٩٥، قام بنديت بأولى رحلات الشراء السنوية إلى مصر، وقتذاكٍ، كان المتحف المصري بالقاهرة ذو الإدارة الفرنسية، يبيع الآثار المصرية - رغم أنه كان مُكلَّفًا بالمحافظة عليها.

وفي هذه الأثناء، قامت مصلحة الآثار، الفرنسيَّةِ الإدارة أيضًا، بعرضِ مجموعةٍ كاملةٍ من الآثار لبيعها إلى متاحف العالم الكبرى. وانتشرت محال بيع الأنتيكات في شوارع القاهرة والتفَّ حولها جامعو الآثار الأوروبيون الذين أتوا من كل حدبٍ وصوبٍ. ونتيجة لهذه الرحلات المستمرة امتلأ اللوفر عن آخره بمجموعة من أروع الروائع. ولكل عصر ما يميزه من الآثار الفريدة، ففي هذه الرحلة حصلوا على سكين جبل العركي ذي المقبض العاجي المنحوت الذي يُعدُّ واحدًا من أهم آثار عصر ما قبل وبداية الأسرات المصرية، والذي ساهمَ بشكلٍ كبيرٍ في تأريخ تلك الفترة.

وباعت مصلحة الآثار لمتحف اللوفر مصطبة آخت حتب ذات النقوش الرائعة، وعمود هرم الملك ونيس الجرانيتي الوردي ذا الأمتار الستة، وتمثال أخناتون النصفي الجميل، وأربع مزهريات من القيشاني الأزرق الرائق، ممهورة باسم الملك رمسيس الثاني العظيم، والسيستروم (آلة موسيقية) الفريد الذي يحمل اسم مغنية المعبود آمون المدعوة حنوت - تاوي.

وفي العام ١٩٠٧، تسلَّم اللوفر جزءًا من مجموعة احتوت على أشياء نادرة عدة، مثل فلك البروج بسقف معبد دندرة السالف الذِّكر، وحجرة الأسلاف بمعابد الكرنك في البر الشرقي للأقصر، وأحضرها إلى فرنسا الرسام

الفرنسي الشهير إميل بريس دافين الذي أشهر إسلامه وتسمى بـ»إدريس أفندي» بعد ذلك. وبعد نقل آثار السرابيوم، كانت الآثار المصرية تُرسل بانتظام إلى اللوفر وانتشر النبَّاشون الفرنسيون في أرض مصر يقلِّبونها شبرًا شبرًا، بحثًا عن الآثار المصرية من أقاصي الدلتا شمالاً وإلى الجندل الأول جنوبًا. فمن تانيس، أحضروا عمودين من الجرانيت الوردي وأساسات معابدها، وكانت هليوبوليس، «عين شمس والمطرية الحاليتان شرق القاهرة»، أولى المواقع التي أمدَّت اللوفر بالكثير من الآثار، وبالرغم من قلة ما أخرجته، فإنه كان عظيم الأهمية بشكل لم يسبق له مثيل، وشمل، فيما شمل، النقش الصاوي (الأسرة ٢٦) النادر للموضوع المصري الأثير والمعروف بالصيد في الأحراش كطقسٍ للقضاء على الشرِّ في العالم الآخر. ومن «أبو رواش»، شمال أهرام الجيزة، جاء التمثال النصفي الآسر لابن الملك خوفو، الملك جدف رع وآثار لأمراء آخرين من العائلة المالكة. علاوة على ما أخرجه الموقع من آثارٍ كثيرة ترجع الى عصر ما قبل وبداية الأسرات المصرية، وهي من مفاخر اللوفر، وشملت الأواني الحجرية وصلايات الشست (ألواح صحن الكحل)، والأسلحة النحاسية، والأسود العاجية الصغيرة، وقطع الألعاب المختلفة.

ومن بين الآثار المكتشفة في تنيس شمال الدلتا المصرية، التوابيت ذات رؤوس الصقور المصغرة. وأخرجت مقابر زواية الأموات ودارا في مصر الوسطى تماثيل الخدم المؤدين أعمالهم المكلفين بها، والحُلي، والآثار النذرية من أواخر عصر الدولة القديمة.

واستخرجوا نسيج القباطي ذا الشهرة العالمية من جبانة أنتنوي «الشيخ عبادة» في المنيا. وتمثِّل الآن مجموعة اللوفر واحدة من أكبر مجموعاته في العالم، ومن بينها، شال سابين المزيَّن برسومات أسطورية منفَّذة بألوان مخلوطة. واكتُشِفَت أيضًا آثار كثيرة من أدوات الحياة اليومية مثل صناديق أقلام الرسم، وأدوات النسيج، والفخار ذي الرسومات الحيوانية. فيما وُجدت الأعتاب الخشبية والأبواب والتيجان واللوحات الجدارية مدفونة تحت الرمال في باويط في أسيوط. مما دعا أمناء المتحف إلى تخصيص قاعة في المتحف لتكوين كنيسة قبطية. ومن أروع ما عثر عليه من الآثار، تلك الحشوة الخشبية الملونة المدهشة والتي تجمع بين السيد المسيح عليه السلام، ورئيس الدير الأنبا مينا والأفاريز المنحوتة بالتصميمات النباتية والطيور، والأعتاب الخشبية المصور عليها الملكان ميخائيل وجبريل. وتعكس كل هذه الآثار مدى أهمية هذا الدير الذي عمر بين القرن السادس والقرن الثامن الميلادي.

وأخرجت أسيوط وسط صعيد مصر (المكان الاستراتيجي في عصر الدولة الوسطى) الأثاث الجنائزي الخاص برئيس القضاة نحت مع تمثاله المعبر من

خشب الأكاشيا (السنط)، والتوابيت الحجرية، والتماثيل الصغيرة لحملة القرابين، والنماذج الملونة للمراكب والمخازن. ومن جبَّانة أبيدوس الملكية، جاء العمل الأعظم، لوحة الملك الثعبان، وأثاث الأسرتين الأولى والثانية النادر، ولوحات الأفراد، والأواني المنقوشة، والآثار المعدنية والعاجية.

واكتشف في الطود والميدامود (قرب الأقصر) كنز من الفضة واللازورد والتماثيل الملكية، ونقوش من الحجر الجيري ووجوه الملكين أمنمحات وسنوسرت، وهي من روائع فن النحت من عصر الدولة الوسطى. وفي قرية دير المدنية في البَر الغربي لمدينة الأقصر، حيث عاش ودفن العمال الفنانون المهرة الذين قاموا بتشييد وتزيين مقابر وادي الملوك، عثر الفرنسيون على كنزٍ هائلٍ من المعلومات عن كثير من مظاهر الحياة والموت في عصر الدولة الحديثة. فاكتشفت آلاف الأشياء في مقابر هؤلاء العمال والفنانين في أنقاض هذه القرية، والتي تحكي عنهم كل شيء، الطعام الذي كانوا يأكلونه مثل الفواكه، والخضراوات، والدجاج، وأثاثهم، وأدواتهم، وآلاتهم الموسيقية، وابتهالاتهم للآلهة، وأعمال التلاميذ المدرسية، والمشاجرات بين الزملاء، وأحوال المنزل، وشؤون الزوجات، وسُجِّلَت كل هذه الأشياء في الوثائق المكتوبة الخاصة بذلك المجتمع. ووجدت التماثيل والأعتاب والأثاث الجنائزي في منطقة مقبرة القائد إزي في إدفو شمال أسوان في صعيد مصر، والتي تجسِّد بوضوح تطوُّر الجبَّانة في عصري الدولتين القديمة والوسطى.

وأخرجت جزيرة إلفنتين قُربَ أسوان العديد من الوثائق الضرورية التي توضح كيفية عبادة آلهة الجندل الأول، وتشمل مومياوات الكباش (الحيوان المقدس للإله خنوم رب الخلق عند المصري القديم)، والقرابين المنذورة للإلهة عنقت، والكُتَل الحجرية الضخمة المخصَّصة لمعبد الإلهة ساتت زوجتا (أو زوجة وابنة) الإله خنوم اللتين تكوِّنان معه ثالوث جزيرة إلفنتين.

وفي العام ١٩٧٢، حصلت فرنسا على العمود الأوزيري (نسبةً إلى الإله أوزيريس) الضخم والخاص بالملك أخناتون. والمتحف مليء بتماثيل المرأة رمز الجمال الإغريقية فينوس القادمة من مصر، وكذلك الموازييك المصري وبورتريهات الفيوم من الحقبة الرومانية ومنحوتات دافني والعذراء أنونسيات. والمخازن مليئة بالملابس وتماثيل التراكوتا (الطمي المحروق) المصرية الصميمة.

وبالنظر إلى النشاط الفرنسي في الآثار المصرية، نجد أنه بدأ منذ فترة مبكِّرةٍ جدًّا، وربما تكون أولى محطاتها الحملة الفرنسية على مِصر، وأن الآثار المصرية في اللوفر جاءت من كُلِّ بقاع مصر من أدنى الشمال إلى أقصى الجنوب، ومن أقدَم العصور المصرية منذ عصورِ ما قبل التاريخ مُرورًا بالعصر العتيق وعصور الدول القديمة والوسطى والحديثة بما تخلَّلَها من عصور

اضطراب وإلى نهاية العصور الفرعونية ثم العروج على آثارِ مصر البطلمية والرومانية والقبطية وإلى الفتح العربي. ففي رحلة زمانية تبدأ على وجه التقريب منذ سبعة آلاف عام قبل الميلاد وتمتد إلى سبعمائة ميلادية، حوالي ٧٧ قرنًا هي عمر التجربة المصرية منذ عصور ما قبل التاريخ وإلى الفتح العربي. إذًا هي رحلة زمانية مكانية، خاضَها الفرنسيون في سبيل تكوين متحف اللوفر. وتنوَّعَت مصادر تمويلهم بالآثار من فترة القناصل المزدهرة التي كانت مصر فيها مسرحًا مستباحًا لأخذ الآثار على أيدي القناصل الأجانب بها، في ظِلِّ غَيبة الوعي والإهمال اللذين كانت تتعامل بهما الحكومة المصرية مع الآثار التي لم تكن تدري عنها شيئًا وتُرضي خاطر الأجانب بأية طريقة، إلى الاعتماد على الحفر المباشر في الأرض المصرية، ثم الشراء من تُجَّار العاديات، وتقبُّل الإهداءات. واللافت للنظر في تعامُل الفرنسيين مع الآثار المصرية أنهم كانوا يقدِّرون الروعة والندرة في كل الآثار التي يجلبونها إلى اللوفر، ليصنعوا تاريخًا لهم من خلال سحر مصر القديمة الذي لا يقاوم وعلى حساب آثار مصر الخالدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢)

مصر في المتحف البريطاني

يُعَدُّ المتحف البريطاني في العاصمة البريطانية، لندن، صرحًا ثقافيًا كبيرًا في تاريخ البشرية جمعاء، وواحدًا من أبرز معالم الإنسانية، فحتى إذا فقدَتْ البشرية ذاكرتَها وضاعت في غياهب النسيان، فسوف يكون بمثابة السجلّ الحافل بأعظم إنجازاتنا وتاريخنا ومجدنا، بل وإخفاقاتنا، نحن البشر في كل مكان وزمان.

تاريخ المتحف

تم تأسيس المتحف البريطاني العريق في عام ١٧٥٣. وكان أول متحف وطني في العالم كله يتم فيه السماح بدخول الجمهور بالمجان. ومنذ اليوم الأول من افتتاحه، فتحَ المتحف أبوابه مجانًا لجميع الأفراد الذين كان يدفعهم الفضول والاجتهاد لتحصيل العِلم والمعرفة وتحقيق الإبداع والابتكار. وباستثناء فترة الحربين العالميتين، ظلَّ المتحف يفتح أبوابه يوميًّا منذ اليوم الأول، مع زيادة تدريجية في ساعات الافتتاح، وارتفاع ملحوظ في عدد الزائرين؛ فتزايدت أعدادُ زائري هذا المتحف العملاق من حوالي خمسة آلاف في العام الواحد خلال القرن الثامن عشر الميلادي إلى ما يزيد عن ستة ملايين زائر في العام في الوقت الحالي.

وترجع أصول المتحف البريطاني إلى التَّرِكَة الأثرية والثقافية الهائلة التي أهداها له السير هانز سلون (١٦٦٠ - ١٧٥٣) الذي عمل كطبيب وعالم طبيعة وكان جامعًا نهمًا للروائع والدُّرَر والتحف الفنية من مختلف العصور والحضارات. وجمع السير هانز سلون في حياته ما يزيد عن واحد وسبعين ألف قطعة متحفية. وأراد أن يتم الاحتفاظ بها بعد وفاته، فأوصى بإهداء مجموعته كاملة إلى الملك البريطاني، الملك جورج الثاني، باسم الأُمَّة البريطانية، مقابل مبلغ عشرين ألف جنيه إسترليني يُدَفع إلى ورثة عائلة السير هانز سلون. وبالفعل تم قبول تلك الهدية الثمينة من السير هانز سلون. وبناءً على ذلك، أصدر البرلمان البريطاني قانونَ تأسيس المتحف البريطاني في تاريخ (٧ يونيو ١٧٥٣).

وتكوَّنت معظم مجموعات المتحف البريطاني الأساسية من الكتب والمخطوطات والعينات الطبيعية، وكذلك بعض القطع الأثرية والنقود والميداليات والمطبوعات والرسومات والقِطَع والمواد الإثنوجرافية وغيرها الكثير.

وفي عام ١٧٥٧، تبرَّع الملك البريطاني، الملك جورج الثاني، بالمكتبة الملكية العريقة التي جمعها كل ملوك إنجلترا عبر القرون الطويلة للمتحف الجديد، فضلاً عن منح المتحف البريطاني الامتياز الحصري بالاحتفاظ بحقوق الطبع والنشر.

وبناءً عليه، أُفتِتحَ المتحف البريطاني أمام عامة الجمهور يوم (١٥ يناير من عام ١٧٥٩) في مقره الأصلي، في قصر مشيد في القرن السابع عشر الميلادي، ويُسمَّى مونتجيو هاوس، بحي بلومزبري اللندني الشهير، نفس الموقع الذي يوجد به المتحف البريطاني إلى اليوم الحالي.

وشهدت باكورة القرن التاسع عشر الميلادي عددًا من عمليات الشراء والاقتناء الشهيرة لمعروضات جديدة مثل الحصول على حجر رشيد (١٨٠٢). وفي عام ١٨٢٣، أدى قيام الملك البريطاني، الملك جورج الرابع، بمنح مكتبة والده (مكتبة الملك) إلى الأمة البريطانية، إلى تشييد مبنى المتحف الأصلي الذي نراه اليوم، حيث أشرف على تصميمه المعماري البريطاني المعروف السير روبرت سميرك. وبحلول عام ١٨٥٧، كان البناؤون قد أنجزوا تشييد المبنى الراهن ذي الأضلاع الأربعة، وقاعة القراءة الدائرية.

وبعد ذلك، وبغرض توفير مساحاتٍ أكبر لحفظ مقتنيات المتحف المتزايدة، تم نقل مجموعات التاريخ الطبيعي إلى مبنى جديدٍ في حي ساوث كنسينجتون اللندني المعروف خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر الميلادي؛ ليصبح بعد ذلك متحف التاريخ الطبيعي الشهير.

وقد شارك المتحف البريطاني في أعمال حفائر كثيرة في عددٍ كبيرٍ من دول العالم؛ فكانت مجموعات مقتنياته هي الأساس لفَهم اللغة المصرية القديمة وفك رموزها على سبيل المثال. وكان حجر رشيد المفتاح الذي أسفر عن كشف أسرار الكتابة المصرية القديمة.

وتم زيادة مجموعة المتحف البريطاني من مصادر عديدة؛ فتم جمع قطع أثرية من عصور ما قبل التاريخ، فضلاً عن عددٍ كبيرٍ من الفنون والمواد المختلفة من بلدان الشرق العديدة. وزادت أعداد الزائرين بشكل كبير في فترة القرن التاسع عشر الميلادي. واجتذب المتحف عددًا كبيرًا من الزائرين من جميع الأعمار والطبقات الاجتماعية.

وإلى جانب الدراسات الأكاديمية، اهتمَّ أمناء المتحف عبر السنين بتعزيز جاذبية المتحف وتوسيع دوره، من خلال إلقاء المحاضرات الثقافية والتعليمية، وتحسين معارض مقتنيات المتحف، وتأليف الأدلة المطبوعة التي يسترشد بها زوار المتحف من غير المختصين من جميع دول العالم.

وشهدَ القرن العشرون توسُّعًا كبيرًا في الخدمات العامة التي يقدمها المتحف؛ فتم نشر أول دليل موجز للمتحف في عام ١٩٠٣ وتعيين أول المرشدين في عام ١٩١١.

وبحلول سبعينيات القرن العشرين المنصرم، أطلقَ المتحف برنامجًا منظمًا لتجديد قاعات العرض، وأسَّس خدمة تعليمية جديدة ودارِيّ للنشر، ونفَّذ عدة مشروعات إنشائية لتوفير المرافق العامة الإضافية للجمهور.

وفي عام ١٩٧٣، أصبحت المكتبة جزءًا من مؤسسة جديدة أطلق عليها اسم المكتبة البريطانية. وظلت هذه المؤسسة قائمة في حرم المتحف إلى أن أُفتتح مبناها الجديد عام ١٩٩٧ في حي سانت بانكراس، وتم نقل كتب المكتبة إليه.

أما أحدث عملية توسيع للمتحف، فكانت تشييد فناء الملكة إليزابيث الثانية الكبير الذي شُيِّد في موقع المكتبة السابق. ويُعَدُّ أكبر مساحة عامة مغطاة في أوروبا؛ إذ تصل مساحته إلى حوالي الفدانين. وفي وسطه قاعة القراءة التي تمَّ ترميمُها. بينما شيِّدَ حول القاعة وتحتها عدد من المرافق الجديدة، منها قاعات عرض ومركز تعليمي.

وفي عام ٢٠٠٣، احتفل المتحف بعيدِه السنوي رقم ٢٥٠ بتنفيذ مشروع تحديث وتجديد مكتبة الملك. وهي أقدم قاعة في المتحف. وتم تدشين معرض دائم جديد تحت عنوان «عصر التنوير: اكتشاف العالم في القرن الثامن عشر الميلادي».

ويواصِل المتحف في أوائل القرن الحادي والعشرين الميلادي توسيع مرافقه العامة، مع افتتاح معارض دائمة جديدة. واليوم، يتطلع المتحف إلى تنفيذ مشروع جديد ضمن سلسلة مشروعاته الإنشائية الضخمة، وهو مشروع المركز العالمي للمعارض وحفظ الآثار، والذي سيشتمل على مساحة جديدة للمعارض المؤقتة.

ويُعتبَر قسم المصريات في هذا المتحف العظيم من أهم القلاع الثقافية التي تُشَدُّ إليها الرحال من كل بقاع المعمورة؛ نظرًا لما يحويه من آثار تشهد على عظمة وتفرد الآثار المصرية الموجودة به والتي تمثل قمة إبداع الحضارة المصرية التي نشأت على ضفاف نهر النيل العظيم منذ أقدم العصور، معبرة في تناغم ليس له مثيل عن عطاء الإنسان المصري، ذلك البناء العظيم المحب للتحضر والتشييد أبد الدهر.

وتعد حضارة مصر القديمة أكبر هادٍ للبشرية عبر تاريخها المجيد التليد، وشاهدة على عظمة حضارة مصر التي قامت على قيم وأسس أخلاقية

عديدة منها حب الحق والخير والتمتع بالجمال وإقامة العدل.

وتضرب دومًا مصر القديمة المثال الواضح على حضارة قامت على احترام العلم وتقديس الدين وتطبيق العدالة بدقة وتبجيل الحق والإعلاء من شأن الإبداع والجمال. وتُعَدُّ حضارتنا المصرية القديمة مثالاً صالحًا في كل زمانٍ ومكانٍ لكل الحضارات قديمًا وحديثًا للاقتداء بمصر وحضارتها واعتبارها نموذجًا يُقتدى به ونبراسًا يُهتدَى به في كم الظلمات التي قد تحدق بحضارة ما في وقت معين من تاريخ عالمنا قديمه وحديثه.

وشكلت القطع الأثرية المصرية القديمة نواة مجموعة المتحف البريطاني منذ بداية تأسيسه؛ إذ ضمت المقتنيات التي أهداها السير هانز سلون إلى الأمَّة عند وفاته في عام ١٧٥٣ حوالي مئة وخمسين قطعة من مصر القديمة.

ويحتوي قسم الآثار المصرية في المتحف البريطاني حاليًا على أكثر من مئة ألف قطعة. وهي مجموعة كبيرة من التماثيل وأعمال النحت التي تعود إلى عشرة آلاف سنة قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

وبدأ الولع الأوروبي بمصر ينمو بعد أن غزا نابليون بونابرت مصر في عام ١٧٩٨ خصوصًا وأن حملته المصرية اصطحبت معها مجموعة من العلماء المتخصصين لتسجيل مختلف المعلومات عن مصر. وعندما هزم البريطانيون فرنسا في مصر عام ١٨٠١، اشترطت معاهدة الاستسلام أن يتنازل الفرنسيون عن عددٍ من القطع الأثرية، كان من بينها حجر رشيد، الأشهر بين كنوز المتحف البريطاني؛ إذ أُعطيت هذه الآثار في عام ١٨٠٢ إلى المتحف باسم الملك البريطاني، الملك جورج الثالث.

وبعد ذلك خضعَتْ مصر لحكم محمد علي وخلفائه الذين كانوا حريصين على الترحيب بالأجانب في بلادهم وإهدائهم البعض من الآثار المصرية. وسرعان ما بدأ القناصل الأجانب المقيمون في مصر ينهبون آثار مصر ويشحنون مجموعات كبيرة من الآثار المصرية الفريدة والمهمة إلى بلادهم ومتاحف عواصمهم الأوروبية.

وبالفعل نهب القنصل البريطاني الشهير هنري سولت مجموعة كبيرة من الآثار المصرية بمعاونة وكيله الشهير بلزوني الذي كان مسؤولاً عن إزالة التمثال النصفي للفرعون الأشهر الملك رمسيس الثاني، والمعروف باسم «ممنون الأصغر»، وأهداه إلى المتحف البريطاني في عام ١٨١٧.

وجمع القنصل هنري سولت مجموعتين مهمتين شكَّلَتا محور مجموعة قسم الآثار المصرية القديمة في المتحف البريطاني. وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر الميلادي حصل المتحف على عددٍ كبيرٍ من مجموعات البرديات والآثار

المهمة. وبحلول عام ١٨٦٦، كانت المجموعة تتألف من حوالي عشرة آلاف قطعة من كنوز مصر القديمة التي لا تُقدر بثمن.

وبدأت الآثار المستخرَجَة المصرية من الحفائر تُرسَل تباعًا إلى المتحف البريطاني في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، بمساعدة من صندوق استكشاف مصر (والذي صار جمعية في الوقت الراهن). ودون شكٍّ، ساهمت جهود عالم المصريات البريطاني المعروف إي. إيه. واليس بدج، أمين قسم المصريات في الفترة من ١٨٩٤ - ١٩٢٤، في إثراء مجموعة المتحف البريطاني من الآثار المصرية العريقة وكانت مصدرًا رئيسًا آخر للآثار المهربة لقسم المصريات به.

وزار بشحن مصر بانتظام مجموعة واسعة من البرديات والآثار الجنائزية حتى وصل تعداد المجموعة إلى حوالى سبع وخمسين ألف قطعة عندما تقاعد عام ١٩٢٤.

وتقلصت برامج الحفائر في السنوات التالية. ولم يعد تهريب الآثار المصرية من مصر إلى المتحف البريطاني ممكنًا منذ فترة بعيدة؛ نظرًا لقوانين حماية الآثار المصرية التي حرَّمت ذلك ومنعت بذلك طوفان الآثار المصرية المسروقة والمرسلة إلى خزائن المتحف البريطاني في لندن.

وتتواصل في الوقت الحالي دراسة مجموعة الآثار المصرية الموجودة في المتحف البريطاني، ويتم إجراء البحوث العلمية عليها. ولم تتوقف أعمال البعثات الأثرية التابعة للمتحف والتي تعمل في عدد من المواقع الأثرية في الأرض المصرية وذلك ضمن تنفيذ برنامج المتحف البريطاني للأعمال الأثرية الميدانية في أرض مصر الثرية بالآثار.

ويحفل قسم المصريات بالمتحف البريطاني بلندن بعددٍ كبيرٍ من الكنوز التي لا يُقاوم سحرَها إنسانٌ. من آثار عصور ما قبل التاريخ إلَى نهاية العصور اليونانية - الرومانية. ولا يمكن لأحدٍ أن ينسى حجر رشيد، والتماثيل الملكية المعروفة مثل تمثال الملك رمسيس الثاني الشهير، ورأس الملك أمنحتب الثالث المعروف، وتمثال الملك أمنحتب الثالث الشهير على شكل أسد، ومقبرة ومقصورة النبيل نب آمون التي تمثل قيمَ ومفاهيم الحياة والموت في مصر القديمة وتصوِّر المدعو نب آمون في مشاهد عدة مثل المنظر الرائع الذي يصوره يصطاد في أحراش الدلتا المصرية، وكذلك برديات كتاب الموتى الفرعوني، وتماثيل المعبودات الفرعونية كالربة باستت، والأبواب الوهمية، ومناظر المتوفي جالسًا إلى مائدة القرابين، وتماثيل الأفراد الجماعية، غيرها الكثير من الآثار المصرية الساحرة.

وسوف يظل قسم الآثار المصرية القديمة في المتحف البريطاني واجهة المتحف الثقافية الكبرى التي يأتي إليها كل زائر للمتحف من كل حدبٍ وصوبٍ، قاصدًا التعرُّف على حضارة سادت العالم القديم كله، وأثَّرت فيه بقوَّةٍ، وما تزال تؤثِّر بامتياز في كل كائنٍ مَن كان أو كل ذي عينين عبر فضاء المعمورة الفسيح.

إنه سحر مصر القديمة الذي لا يُقاوم أينما كان، والذي سوف يظَلُّ جاذبًا لكل العقول والأفئدة مهما اختلفت العصور وتغير الإنسان وتعددت الأزمان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٣)

الفراعنة في اليابان

يحمل اليابانيون ولعًا كبيرًا بمصر الفرعونية وآثارها، وتعتبر من أهم ما يجذبهم لزيارتها ومن المعروف أن اليابانيين يزورون مصر باستمرار أكثر من مرة للتمتع بآثارها الفرعونية الساحرة.

وتُعَدُّ العلاقات الأثرية بين مصر واليابان قديمة منذ الستينيات في القرن العشرين المنصرم. وهناك تعاوُن بين البلدين على أعلى المستويات في مجال الآثار. وهناك مشروعات عديدة بين مصر واليابان. نذكُر منها، على سبيل المثال لا الحصر، مشروع إنشاء المتحف المصري الكبير بهضبة الجيزة، ومشروع مركب خوفو الثاني جنوب الهرم الأكبر هضبة أهرام الجيزة، وغيرهما الكثير. وهناك تواصل كبير ومستمر بين البلدين على كل المستويات الأثرية.

ومن هذا المنطلق وإيمانًا بهذا، كان تنظيم واستضافة معرض «بناة الأهرام» أو معرض «الفراعنة الذهبيون والأهرامات» في ثماني مدنٍ في اليابان لمدة تقرب من العامين.

وضم هذا المعرض مائة وعشرين قطعة أثرية من أروع الآثار المنتقاة من المتحف المصري بالقاهرة عن عصر بناة الأهرام في عصر الدولة القديمة والدولة الوسطى، مثل تماثيل تحمل اسم الملك خوفو، وتمثال للملك خفرع وآخر للملك منكاورع، ومجموعة جميلة من مجوهرات أميرات عصر الدولة الوسطى، فضلاً عن تابوت جميل من عصر الانتقال الثالث، ودُرَّة المعرض قناع الفرعون الشهير الملك آمون إم أوبت من عصر الأسرة الحادية والعشرين، الذي يُشبِه قناع الفرعون الذهبي الأشهر الملك توت عنخ آمون. وكان قد اكتشف هذا القناع عالم الآثار الفرنسي بيير مونتيه ما بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٦ ضمن كنوز تانيس الذهبية المكتشفة في صان الحجر في شرق الدلتا المصرية.

واستمر هذا المعرض لمدة ثلاثة أشهر في كل مدينة من المدن اليابانية الثمانية لمدة عامين. وبدأ هذا المعرض جولته في اليابان يوم (١٦ أكتوبر ٢٠١٥) وعاد إلى مصر بعد يوم (٢٤ سبتمبر ٢٠١٧).

وشهد افتتاح المعرض في كل محطة من محطاته وزيرُ الآثار المصري أو من يمثِّله، ووفدٌ رفيع المستوى من وزارة الآثار المصرية، فضلاً عن عددٍ كبيرٍ من الجمهور الياباني من كل الأعمار والمستويات، وعددٌ من الشخصيات اليابانية

العامة. فعلى سبيل المثال، شهد الافتتاح في مدينة شيزوكا مديرة متحف شيزوكا الدكتورة ماري إيزومي، والسيدة نعومي كودو، المشرف العام على تنظيم المعرض من هيئة التليفزيون والإذاعة اليابانية (تي بي إس)، والسيد هيدهارو كاتسورا، رئيس هيئة الإعلام في شيزوكا، ورئيسة جمعية الثقافة في شيزوكا.

ومن الجدير بالذِّكر أن هذا المتحف قام بتنظيم معرضين عن آثار الفراعنة من قبل، أحدهما كان عبارة عن آثار مصرية قديمة قادمة من متحف مدينة تورينو الإيطالية الشهيرة.

وحطَّ المعرض في محطته السابعة وقبل الأخيرة في مدينة شيزوكا بين المدن الثمانية التي عُرِضَت بها آثار هذا المعرض. وبدأ المعرض في مدينة شيزوكا في (٩ إبريل ٢٠١٧)، وانتهى في يوم (٢٥ يونيو ٢٠١٧).

ومن المعروف أن هذا المعرض قد زاره في المدينة السابقة، مدينة توياما، حوالي ٨٠٥٤٩ زائرًا في مدة ٧٣ يومًا. كما أشرف على تنظيم المعرض من الناحية الأثرية عالم الآثار الياباني الشهير الدكتور ساكو جي يوشيمورا، والذي استعرض، في كلمته، أهمية هذا المعرض وسعادته بوجوده في متحف مدينة شيزوكا الذي يُعَدّ متحفًا مهتمًا بعرض الآثار والتاريخ والثقافة.

وأشار الدكتور يوشيمورا إلى أهمية مصر بالنسبة لليابان. وتحدَّث عن عظمة عصر بناة الأهرام المصرية. وأكَّد على أن الهرم معجزة أثرية مصرية بناها المصريون القدماء، ودعا اليابانيين إلى ضرورة زيارة مصر قبل وفاتهم.

وقام بتنظيم المعرض هيئة التليفزيون والإذاعة اليابانية (تي بي إس). وانتقل معرض «بناة الأهرام» أو معرض «الفراعنة الذهبيون والأهرامات» وافتِتحَ في مدينة فوكوكا، محطته الثامنة والأخيرة، قبل العودة إلى وطنه الأم مصر يوم ٢٤ سبتمبر ٢٠١٧. وما تزال اليابان تخطط لاستضافة معارض أخرى من مصر عن آثار الفراعنة وتاريخهم الساحر، ومنها معرض آثار الفرعون الذهبي الذي سوف اليابان قريبًا.

إن اليابانيين يعشقون مصر ولا بُدَّ لنا أن نستثمر هذا الهوس الياباني فخرًا بمصر وعظمة آثارها الخالدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(٤)

الفراعنة في بلتيمور

ذهبت إلى مدينة بلتيمور بولاية ميريلاند الأمريكية من قبل للحصول على درجة الدكتوراه في تاريخ وآثار مصر والشرق الأدنى القديم في جامعة جونز هوبكنز العريقة في بداية عام٢٠٠٣. ولفتَ نظري أن الجامعة تضم مجموعة أثرية تعليمية صغيرة بها بعضٌ من الآثار المصرية القديمة.

وفى أواسط عام ٢٠٠٢، كانت الجامعة تستضيف اللقاء السنوي لمركز البحوث الأمريكي بمصر بعد فترة طويلة من انعقاده في نفس الجامعة. وشهدت نهايات عام ٢٠٠٣ وصول معرض «مصر الخالدة» من المتحف البريطاني بلندن إلى «متحف والترز للفن» الشهير بمدينة بلتيمور في إحدى محطاته الأمريكية العديدة.

فما قصة مصر الفرعونية في مدينة بلتيمور الأمريكية وتحديدًا في متحفها المعروف «الوالترز»؟

يقع «متحف والترز للفن» في وسط مدينة بلتيمور، قريبًا جدًّا من منطقة الميناء الداخلي (الإنر هاربر)، وليس بعيدًا عن جامعة جونز هوبكنز، ويعتبر من أبرز معالم المدينة الثقافية. وبناه هنري والترز (١٨٤٨ - ١٩٣١م) عام ١٩٠٩م، رجل الأعمال وجامع التحف الأمريكي المعروف، ابن مدينة بلتيمور. وجمع آثاره وكنوزه الفنية الرائعة، بين عامي (١٨٩٩ - ١٩٣١). وبوفاته أصبحت مجموعة الآثار المصرية واحدةً من أجمل المجموعات الأثرية الخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية. وفيما بعد ساهمت الإهداءات والمقتنيات والإعارات الزمنية الطويلة في جعل المتحف واحدًا من أهم المجموعات الأمريكية في الفن المصري القديم. وربما جذب والترز إلى اقتناء أعمال الفن المصري القديم قيامُه برحلة بحرية في البحر المتوسط في عام ١٨٨٩ زار خلالها مصر، وتحديدًا القاهرة والجيزة لمدة يومين. وفي تلك الزيارة، جلب عددًا من روائع مجموعته المصرية. وعلى عكس عددٍ كبيرٍ من هواة جمع الآثار الثمينة في زمنه، لم يَقُم أو يكلف والترز أحدًا بإجراء حفائر له في مصر من أجل التنقيب عن الآثار المصرية لإثراء مجموعته الخاصة، وإنما اقتنى أغلبها بالشراء من التجار أو من صالات بيع الآثار في مصر وخارجها.

وبينما شغلَ هواة جمع الآثار المصرية أنفسَهُم بجلب المومياوات والبردي والآثار الكبيرة الحجم إلى متاحفهم ومجموعاتهم الخاصة، انصبَّ اهتمام والترز على الآثار الصغيرة والثمينة مثل التماثيل الصغيرة والتمائم والجعارين والحُليّ والقطع المهمة. وانصرف بدأب إلى اقتناء كمية كبيرة وفريدة من

التماثيل المصرية والأعمال المصنوعة من البرونز. وفي نهاية حياته، ضم عددًا من التماثيل الكبيرة إلى مجموعته حتى أصبحت متميزة للغاية في زمن قصير.

وفي عام ١٩٢٥، اشترى والترز واحدًا من أهم القطع المصرية في مجموعته، وأعني تمثال المدعو «نحي» من تاجر آثار فرنسي غير معروف في نيويورك، وربما جاء هذا التمثال من سقارة، وربما اشتراه جان - فرانسوا شامبليون، الذي فكَّ رموز الكتابة الهيروغليفية، أو أحد جنود الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي.

أهم الآثار في بلتيمور

من بين الآثار المصرية المهمة في الوالترز، نقشٌ من معبد من سمنود (وسط الدلتا المصرية)، يمثل الملك نختنبو الثاني (من ملوك الأسرة ٣٠)، وتمثال كبير لأنثى فرس النهر يجسِّد الربَّة الحامية «تاورت». ومن بين جميع المتاحف الأمريكية، اشترى والترز أكبر عدد من التماثيل المستخرجة من خبيئة الكرنك التي اكتشفها المهندس الفرنسي جورج ليجران في فناء الصرح السابع الخاص بالمعبود آمون من الصروح العشرة في معابد الكرنك. وعلى ذلك، فإن مجموعة الآثار المصرية بالوالترز ضعيفة في عدد من الموضوعات المصرية المهمة مثل المومياوات والأثاث الجنائزي وقطع الحياة اليومية والبردي. وللتغلب على ذلك النقص، قام المتحف في عام ١٩٤١ بالحصول على مومياء من متحف المتروبوليتان للفن في نيويورك. وكان قد عثر على هذه المومياء في البَر الغربي لمدينة الأقصر في منطقة الدِّير البحري (حيث يوجد معبد الملكة حتشبسوت الشهير) بين عامي ١٩٣٠و١٩٣١. وهذه المومياء لسيدة وذات غطاء جميل من الكارتوناج، وتُعَدُّ من روائع متحف الوالترز. وبعد ذلك، جاءت مومياء أخرى من العصر الروماني، ومومياوات حيوانية، ومومياء القمح الطقسية. وأعار متحف المتروبوليتان بعضًا من آثاره الجنائزية للوالترز. وكذلك فعل المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو حين أعار بعضًا من أدواته للحياة اليومية للوالترز. وتمتد زمنيًّا مجموعة الآثار المصرية بالمتحف من عصور الأسرات المبكرة إلى العصر اليوناني - الروماني. وتم إعداد وإعادة افتتاح القسم المصري بالمتحف للجمهور في عام ٢٠٠١.

ورغبة منه في أن يشرك أهل مدينته، مدينة بلتيمور، في التمتع بمجموعته الفنية الضخمة، كتب هنري والترز في وصيته أن يؤول المبنى ومحتوياته إلى عمدة ومجلس مدينة بلتيمور وذلك «لمنفعة الجمهور». وعندما مات في عام ١٩٣١، أصبح الوالترز متحف مدينة بلتيمور.

وفي النهاية، أقول إن مجموعة الآثار المصرية في متحف والترز للفن في مدينة بلتيمور تُعدُّ خير معبر عن مصر القديمة وحضارتها على أرض أمريكية، وتعكس ماضيًّا مصريًّا بعيدًا غير أنه مفعم بالحيوية، وتمثل حالة لا تنتهي من السحر والجمال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الثالث

أغرب الاكتشافات التي عرفَها العالم

صفحاتٌ من تاريخ الآثار

لم تسمع عنها من قبل

(١)
كنوز أور الساحرة

نجح السير ليونارد وولي في الكشف عن مدينة أور العراقية القديمة. والتي أثارت دهشة الجميع منذ ذلك الحين!

فعلى مدار أكثر من ١٢ موسمًا من الحفائر بين الأعوام (١٩٢٢ - ١٩٣٤)، نشرت صحف العالم مقالات حول هذا الاكتشاف. ونشرت عنه جريدة لندن المصورة ما لا يقل عن ثلاثين مقالة في صدرها صفحاتها الرئيسية. وأكّد هذا الكشف أسبقية الشرق في إرساء مذاهب ومدارس علم الجمال وتأسيس حضارات عظيمة وثرية، وكشفت أطلال هذه المدينة عن روعة الشرق الساحر.

واختبر موقع الاكتشاف من قبل نائب القنصل البريطاني في البصرة جون تايلور بين العامين (١٨٥٣ - ١٨٥٤). وعلى الرغم من أنه لم ينجح تمامًا في العثور على آثار هذه المدينة كاملة، إلا أنه نجح في العثور على الألواح الطينية المنقوشة بالكتابة المسمارية التي أشارت إلى أور على أنها أور الكلدانيين المذكورة في سفر التكوين.

ثم جرت أحداث سياسية عالمية، وتم إغلاق الموقع الأثري في وجه أعمال الحفائر، إلى أن وقع في قبضة البريطانيين في الحرب العالمية الأولى. فأجريت قليلة وبسرعة إلى عام ١٩٢٢، عندما وافق المتحف البريطاني ومتحف جامعة بنسلفانيا على إرسال بعثة حفائر مشتركة. وتولى إدارة الحفائر «ليونارد وولي» الذي كان أثريًّا وضابطًا ذكيًّا للغاية قضى سنتين في السجين كسجين حرب! وجاءت بداية الحفائر بسيطة إلى أن جاء موسم (١٩٢٦ - ١٩٢٧) حيث عثر على ٦٠٠ مقبرة، ثم توالت الاكتشافات المذهلة بسرعة كبيرة فاقت الخيال.

أهم اكتشافات المدينة

انتاب وولي وفريقه شعورٌ كبيرٌ بالدهشة عندما أخذ الذهب يخرج من الأرض تحت ضربات معاولهم، وظهرت المعجزات الفنية الواحدة تلو الأخرى. وعثر على أكثر من ٢٠٠٠ مقبرة ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وكان بعضها على قدرٍ كبيرٍ من الثراء مما دفعه إلى الاعتقاد بأنها مقابر ملكية. وعلى الرغم من أن معظم المقابر قد سُرقَت، عثر على مقبرة كاملة رائعة تخص السيدة «بو - آبا» من «عصر الأسرات المبكر» (٢٥٠٠ - ٢٦٠٠ ق.م.). عندما كانت «أور» من «دويلات المدن» المستقلة على السهل الفيضي الجنوبي

لنهر الفرات. واحتوت المقابر آثارًا في غاية الفرادة والروعة مثل القيثارات ذات الزخارف الذهبية، والأواني والحُليّ المصنوع من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، والأسلحة التي كانت ترافق الموتى في رحلتهم للعالم الآخر ولأوعية والخناجر الذهبية، والتماثيل الذهبية المطعمة باللازورد لـ «كبش الصيد في الشجرة» ورؤوس الحيوانات المصنوعة من الذهب والفضة التي زينت القيثارات الموسيقية، وغطاء الرأس الذهبي الخاص بالسيدة «بو - آبا»، والخوذة الذهبية الرائعة الخاصة بالسيدة «مس - كلام - دوك»، والمواكب الجنائزية التي ضمت الموسيقيين مع قيثاراتهم، والجنود بكامل أسلحتهم، وحاشية نساء القصر بملابسهن البهية.

وسيبقى اسم أور مرتبطًا عند علماء الآثار بشكل خاص وإلى الأبد بـ «الزقورات» أو الأبراج المدرَّجة التي أُقيمت في أور، وبقيت إلى الآن من أكثر النصب والمعالم إثارة للدهشة والإعجاب. وأضافت هذه الاكتشافات العظيمة فصلاً جديدًا في تاريخ العراق القديم، وأوضحت حجم العلاقات التجارية الكبيرة التي تمتعت بها مدينة أور العراقية القديمة الشهيرة.

ولا يمكن للذاكرة أن تنسى هذه المدينة الفريدة من نوعها، وسوف تبقى قصة اكتشافات ليونارد وولي لهذه المدينة، قصة جديرة بالبقاء ومصدر فخر وسعادة لعلماء الآثار في العالم كله لسنوات طوال، وإن كان «وولي» قد أخذ مكافأته بالعثور على الجبَّانة الملكية الفخمة في أور، فإن أسرار هذه المدينة لم تعلن عن نفسها كلية، وهي إنجازٌ حضاريٌّ متواصل العطاء لم تسبر أغواره بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢)

لفائف البحر الميت

أعادت «لفائف البحر الميت» كتابة التاريخ في عهد السيد المسيح عليه السلام، وغيرت الرؤية إلى التوراة والدراسات التوراتية عمومًا، حيث قادت الباحثين إلى فهم جديد للتاريخ والآثار والدين. وتوضح هذه اللفائف التي تحتوي على أقدم المخطوطات المهمة للتوراة العبرية، حقيقة بزوغ اليهودية والمسيحية كديانات قوية.

أصل الحكاية

ففي ربيع عام ١٩٤٧م، وفي كهف قريب من البحر الميت، عثرَ الصبي محمد الديب، أحد رعاة الأغنام من البدو، على مجموعة من الجرار تحتوي على لفائف مخطوطات قديمة. وقد أدى العثور على هذه المخطوطات إلى سجال علمي استمر ما يقرب من نصف قرن، وأصبحت مسار اهتمام القراء ووسائل الإعلام في كل مكان من العالم. وعثر البدو على المجموعة الأولى من مخطوطات البحر الميت وقُدِّرت بسبع مخطوطات. واتضح معنى هذه المخطوطات وأهميتها بعد عامٍ أو يزيد من العثور عليها. وبيعت إلى تاجر عاديات في «بيت لحم» يدعى «كاندو»، فباع منها ثلاثة إلى الجامعة العبرية في القدس والأربعة الأخرى إلى المار «أثاناسيوس صموئيل» رئيس دير «سانت مارك» للكاثوليك السوريين، فباعها الأخير بدوره في الولايات المتحدة الأمريكية، وانتهى المطاف بها في المدارس الأمريكية للدراسات الشرقية. وأخذ اهتمام الدراسين الأمريكيين والأوروبيين يتزايد بها. وعثر الدارسون بين هذه المخطوطات على نسخة من «سفر أشعيا» التوراتي أقدم من النسخة العبرية الأصلية. وساهم هذا الاكتشاف في خلق نقاش واسع في وسائل الإعلام وجذب انتباه معظم الباحثين في العالم.

وانتشرت حمى البحث عن مثل هذه المخطوطات بين البدو وتجار العاديات، واحتوت المخطوطات التي وُجدَت على أجزاء من نصوص كل كتابٍ من التوراة العبرية على الأقل. ويرجع تاريخها إلى ما بين عام (٢٠٠ ق.م إلى عام ٦٨ م)، وتخص طائفة «العيسويين» نسبةً إلى سيدنا عيسى عليه السلام. وهي طائفة إسرائيلية متشددة في رعاية الأحكام الدينية، وتنتظر الخلاص القريب بظهور المسيح الموعود، وهي أقرب الطوائف الإسرائيلية إلى التطهر من أدران المطامع والشهوات. وقد جعلوا تعاليم الأنبياء جزءًا مهمًّا من اعتقاداتهم، وعندما أدى هذا العصيان إلى محاربة الكهنة الرسميين لهم، تركوا المدن الكبيرة، وخرجوا للحياة بعيدًا في البرية والمدن الصغيرة، وأصبحوا

يمارسون عباداتهم سرًّا حتى لا يبطش بهم الكهنة، وإن كانوا يعتبرون يهودًا، فقد كانوا مختلفين عن باقي اليهود في كونهم يؤمنون بخلود الروح والحساب في الآخرة، ولا يشتركون في تقديم الذبائح في المعبد، ولم يزد عددهم عن أربعة آلاف فرد عند بداية التاريخ الميلادي.

وأصر البعض على أن هذه المخطوطات سوف تبرهن على وجود وألوهية السيد المسيح، فيما اعتقد البعض الآخر أنها احتوت سرًّا خاصًا بطبيعة المسيحية وتشمل المخطوطات حوالي ٨٠٠ نَصًّا، منها حوالي ٢٠٠ نص من التوراة العبرية، وأغنت الفَهم عن الديانة اليهودية المبكرة، والأصول الأدبية للتوراة، والتبشير بميلاد المسيحية. وكُتبَ معظم المخطوطات على الرق، والقليل منها على البردي، وواحدة فقط على رقائق نحاسية. وبالإضافة إلى النصوص التوراتية، ضمت تعليقاتٍ غير معروفة على التوراة، والأشكال الأخيرة للعهد القديم التوراتي، وقوائم الطقوس والقواعد، والنصائح أو التعاليم الخاصة بـ «سفر الرؤيا» وقائمة من الكنوز الدفينة. وكُتبَ معظمها بالعبرية، والقليل بالآرامية أو الإغريقية.

وتثير لغة ومحتويات هذه المخطوطات بعض الشك في كون كتَّابُها من اليهود. وتُوضح بعض الوثائق أن مجتمعهم كان معارضًا نشطًا في مواجهة كهانة يهودية مسيطرة. وعلى الرغم من أن هذه المخطوطات أخذت عقودًا من الدراسة، وطُبِعَ معظمها في شكلٍ ما من الأشكال، فإنها ما تزال تمثل التحدي الأكبر أمام الأجيال الجديدة القادمة لتكشف سرها وتميط اللثام عن معلومات كثيرة مجهولة في تاريخ اليهودية والتبشير بالمسيحية في عصرها الأول، خصوصًا أنها لم تُنشَر كلها. فقد أخفت إسرائيل كثيرًا منها لغرض ما في نفس يعقوب قضاها، وادعت في تمثيلية ساذجة وفجة أنها أخرجت كل ما لديها من هذه الوثائق النادرة التي لا تخصها وحدها، وإنما تخص العالم أجمع، ومن حقه أن يعرف أسرار هذه الطائفة اليهودية المنشقة عن الديانة اليهودية الرسمية السائدة آنذاك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٣)

جيش من التماثيل يحرس الإمبراطور!

في فترة السبعينيات من القرن العشرين، خرجت الصين من عزلتها الإجبارية التي فرضتها على نفسها بعض الشيء، وانفتحت على الغرب، فأتيح لمشاهدي التليفزيون في العالم أجمع أن يتابعوا مشهدًا خارقًا للعادة، تتكون تفاصيله المثيرة التي لا تتكرر كثيرًا من جيش قوامه حوالي ٨٠٠٠ جندي من الطمي المحروق (التراكوتا)، وكل جندي بالحجم الطبيعي ولا يشبه أحدهم الآخر على الإطلاق. ويرجع تاريخ الاكتشاف إلى ٢٢٠٠ عام مضى. وكان هؤلاء الجنود في مهمة مقدسة ألا وهي حراسة المقبرة الفخمة لإمبراطور الصين العظيم الأول «جين شيهاونج».

وفي مقبرة هذا الإمبراطور الصيني العظيم، أول أباطرة الصين، وُجد هذا الجيش الجرار، على أهبة الاستعداد للدفاع عن مجد الإمبراطورية الصينية الممتدة الأرجاء، والذود عن سيده الإمبراطور من أي أخطار قد تحدق به. وحكم هذا الإمبراطور الصين بين الأعوام)٢٢١ - ٢١٠ ق.م(، أي حوالي ١١ عامًا. ويقف جنوده منذ عام ٢١٠ ق.م.، عام موت الإمبراطور، صامتين في ١١ صفًا، ويبلغ امتداد هذه الصفوف أكثر من مائتي متر في الحجرة السفلية من المقبرة التي قُسمت إلى سلسلة من الممرات المتوازية.

واستمرت أسرة هذا الإمبراطور تخلفه في الحكم، وبعد سنوات قليلة من وفاته، حدثت حركة تمرد قام بها الفلاحون، واقتحموا مقبرته، وانتقموا من جيشه الجرار الذي لم يحرك ساكنًا، وأصبح لا حول له ولا قوة، بل زادوا أن سرقوا الأسلحة البرونزية الخاصة بهؤلاء الموتى، أهل العالم الآخر، واستخدموها في حروبهم الدنيوية ضد الأحياء فوق سطح الأرض.

وسوف تأخذ هذه المقبرة، عقودًا طويلة من الأثريين لتُكتشَف كلية؛ فكل جندي، وكل حصان، وكل عربة حربية بالحجم الطبيعي. ووجد المكتشفون، الجنود ساقطين على الأرض نتيجة ثورة الفلاحين على المقبرة. وصُممت أساليب تصفيف الشعر بشكل متقن، وطُليت الوجوه بلون أحمر شديد الدموية، ونُفِّذت الأسلحة والسراويل بأسلوب رائع. وصُنع كل تمثال من الطمي المحروق (التراكوتا)، وشُكل في نمط فريد حتى لا يشبه الآخر؛ فهو عضو مستقل يرمز إلى أحد أرجاء الإمبراطورية الفسيحة. وقد طلب هذا الإمبراطور جيشًا ليضع حدًا لعصر التاريخ الصيني المعروف بـ «دويلات الحرب». وأحضر العديد من الأشياء المطلوبة لفن الحرب: السهام البرونزية التي تقتل على بُعد مائتي متر، والعربات الحربية التي يقودها زوجان من

الخيول، والفرسان بأساليب تصفيف شعورهم الفائقة وأردية رؤوسهم المميزة، ورماة السهام، والمشاة. واحتفظ الإمبراطور بكل هذه القوات لحاجته إليها في العالم الآخر. واحتوت إحدى الحفر، الحيوانات المفضلة لدى عظمة الإمبراطور، ونسخة طِبق الأصل من عربته الحربية الفريدة ذات الخيول الأربع المنفذة بنصف الحجم الطبيعي.

أهم مقتنيات المقبرة

لعلَّ أهم ما عُثرَ عليه في هذه المقبرة، هو الهرم غير المكتشف كاملاً الذي يغطي المقبرة نفسها. وصُنعَت هذه المقبرة الإمبراطورية من البرونز. وتأخذ شكل مملكة السماء الخاصة بالصين القديمة، وفقًا لمعتقداتهم، التي تجري فيها الأنهار والبحار، بل المحيطات. واحتوت المقبرة أيضًا على ثروة من المصابيح المملوءة بالزيت وعددٍ كبيرٍ من متعلقات الإمبراطور الشخصية المثيرة والبالغة الأهمية.

وعندما انتهى العمل في هذه المقبرة، وأصبحت مُعَدَّة أحسن إعداد لاستقبال جثمان عظمة الإمبراطور المهيب، أُدخل جسد الإمبراطور إليها وثوى فيها، ودُفنت إلى جواره خليلاته الجميلات العديدات اللواتي لم تنجبن أولادًا على الإطلاق. وهكذا قُدر لهذا الإمبراطور أن يُدفن محاطًا بنسائه وجيشه وعربته الحربية وحيواناته الأليفة. وعمل في بناء وإتمام هذه المقبرة حوالي ٧٠٠٠٠٠ عامل طيلة فترة حكم هذا الإمبراطور!

وهذا ما كشف عنه الأثريون من سطح «مدينة الموتى»، ودون شك. وكما قال مكتشف مقبرة الفرعون الذهبي الأشهر «توت عنخ آمون» الإنجليزي «هوارد كارتر»، فإن هناك «أشياء رائعة» ما تزال تنتظر من يكتشفها. وطيَّرت وكالات الأنباء العالمية منذ فترة خبرًا يخص هذا الأثر الفريد ويرفع الراية الحمراء للفت أنظار الجميع إلى الخطر الذي يتهدَّد جنود الجيش الحارس الباسل؛ فقد بدأ العفن المكوَّن من ٤٠ سلالة، العدو الحقيقي للتماثيل، ينخر في ١٤٠٠ منها، في هجمة شرسة تثير الخوف على مصير هذه التماثيل وغيرها من جنود الجيش العديدين والإمبراطور نفسه ونسائه وعربته وحيواناته الأليفة. وعلى الفور، تنبَّه المسؤولون الصينيون إلى فداحة هذا الخطر، فطلبت سلطات مدينة «شيان»، شمال غرب الصين حيث يوجد أثرنا الفريد، معونة شركة «جانسن فارماكوتيكال» البلجيكية المتخصصة في أبحاث معالجة الفطر للتخلص من العفن الذي يهدِّد التماثيل الأثرية. وأعلن مؤسِّس الشركة «بول جانسن»: «أن ٩٠٪ من العفن يمكن معالجته باستخدام الكيماويات». ونتمنى أن تنجو هذه التماثيل الفريدة من الخطر الذي يتهددها حتى لا تفنى مثلها مثل غيرها من آثار البشرية الكثيرة التي كان مصيرها الفناء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(٤)
ثورة في تاريخ أصول البشرية

واحدٌ من أعظم الاكتشافات الأثرية في القرن العشرين، في أصول علم الإنسان، ذلك الكشف الذي قامت به عائلة «ليكي» في شرق أفريقيا، والمكوَّنة من الأب «لويس ليكي»، والأم العالمة وأستاذة الحفريات «ماري ليكي»، والابن «ريتشارد ليكي»، وزوجته «ميف ليكي». وقد استمروا في الحفر سنوات طوال، أثمرت في عام ١٩٥٩ عن الكشف عن واحدٍ من آباء البشرية الأوائل، وأسَّسوا بذلك آثارَ علم الإنسان، وأحدَثُوا ثورةً في تاريخ الإنسان على الأرض، ورجعوا بالفضل إلى صاحبة الفضل: أفريقيا السوداء، أصل الحضارات في العالم كله. ونجحت هذه الأسرة الفريدة في تاريخ العالم والحفر الأثري في كتابة تاريخ أصول البشرية.

وحبًّا في هذا الهيكل البشري المكتشف الخاص بأحد أنواع الإنسان الأول، أطلق «لويس» و«مارى» عليه «ولدنا»؛ لأنهما قضيا ثلاثين عامًا تقريبًا في البحث عن الولد المفتقد الذي اعتبراه مثل ابنهما الحقيقي. وأطلق عليه رسميًا «زنجانثروبس بويزي»، أو «زنج»، الذي أدخل تاريخ علم الإنسان في طور جديد من أطواره العديدة.

حقيقة اكتشاف أقدم جد للبشرية

قبل عام ١٩٥٢م، كانت الأدلة الحفرية تشير إلى أن إنسان ما قبل التاريخ جاء من أوروبا وآسيا، فهناك بقايا إنسان «نياندرتال» الأولية من أوروبا، وبقايا إنسان «هومو إركتوس» من الصين. ولم يكن لأفريقيا أي دور يُذكَر في تاريخ عِلم الإنسان. وفي عام ١٩٥٢م، أعلن الباحث «ريموند دارت» اكتشافه إنسانًا في جنوب أفريقيا يعُتبَر سلفًا مبكرًا للبشرية. وأطلق عليه «إسترالوبثكوس أفريكانوس» واشتهر بـ «طفل تاونج». ثم تم اكتشاف حفريات شبيهة في جنوب أفريقيا أيضًا في عقود تالية من القرن العشرين. لقد فضَّل الأوروبيون أن تكون أصول الإنسان في أوروبا أو بالقرب منها، ولم يجهدوا أنفسهم في البحث عن أصول الإنسان في أفريقيا، حتى إن إنسان «بلتدون» الشهير الذي عُثرَ عليه في جنوب إنجلترا عام ١٩١٢م، وظلَّ معترفًا به إلى أن جاء ١٩٥٣م، وفيه اكتشفت حقيقته، وثبت أنه ليس إلا رجلاً إنجليزيًّا عاديًّا، وأنها قصة مختلفة، والهدف من ورائها رد فضل السبق إلى أوروبا في تاريخ علم الإنسان وإقرار هبوط الإنسان الأول بها، كما يسعى الخِطَاب الاستشراقي الذي يدعم سيادة وتفوُّق الجنس الأبيض الغربي عمومًا والأوروبي خصوصًا على غيره من بقية الأجناس الأخرى.

لكن «لويس ليكي»، المولود في قلب «كينيا» الأفريقية السوداء من والدين بريطانيين؛ أي إنه ينتمي إلى الجنس المسيطر والمتفوق حضاريًا، كما كان يزعم أصحاب هذه النظرية لأنفسهم آنذاك، لكنه كان متحررًا فكريًا ومن أشد أنصار مذهب الانتخاب الطبيعي والمنهج العلمي اللذين يقران ويرجعان الفضل إلى أصحابه مهما كان الاختلاف أو الاتفاق معهم، فلم يشك مطلقًا في مقولة «تشارلز دارون» في كتابه الأشهر «أصل الأنواع» (١٨٧١م) من أن بدايات البشرية نبعت من أفريقيا. واستهل أول أبحاثه الأثرية عام ١٩٢٦م، عندما كان في الثالثة والعشرين من عمره، وكرس لهذا العمل حياته كلها. وشاركته في ذلك رفيقة كفاحه الطويل زوجته «ماري». وقد وقعت زوجته على أعظم اكتشافاته في أخدود «أولدفاي» في «تترانيا» في شرق أفريقيا السوداء، عام ١٩٥٩م. ووصف هذا الكشف في حينه بأنه أقدم جد للبشرية.

وتبدأ أحداث هذه القصة، عندما عثر الزوجان على العديد من الأدوات الحجرية المقدرة بالمئات. لكن صانع هذه الأدوات حيرهما لعقودٍ طوال. وفي يوم ١٧ سبتمبر من شهر يوليو عام ١٩٥٩م، مرض «لويس»، فقضى بقية يومه في معسكر الراحة. ولم يخرج إلى العمل. وذهبت زوجته «ماري» إلى العمل بمفردها. ولم يشاركها «لويس» الذهاب للمرة الأولى في حياتهما العلمية العملية المشتركة، فلاحظت حفرة عظام مثيرة، فانحنت عليها لتنظيفها؛ فوجدت أسنانًا آدمية ضخمة! فرجعت إلى المعسكر ثانية لتخبر زوجها «لويس» بما عثرت عليه. وبعد مرور يوم سجَّل فيه المصور الحفرية في الموقع، اكتشف الزوجان العالمان الفكَّ العلوي كاملاً ومئات من البقايا التي جمعتها الزوجة «ماري».

وأحدث اكتشاف «إنسان الزنج» أو «زنجانثروبس بويزي» ضجة كبرى، وأطلقت عليه الصحافة العالمية «الرجل كسار البندق»؛ بسبب أسنانه الضخمة. وأرجعت عائلة «ليكي» تاريخه إلى حوالي ٦٠٠٠٠٠ سنة مضت. ووصفه «لويس ليكي» بأنه: «أقدم إنسان في العالم». واتضح بعد ذلك، من خلال دراسة علماء جامعة «كاليفورنيا» الأمريكية من الجيوفيزيقين، مستخدمين وسائل تأريخية حديثة أن عمر «إنسان الزنج» تقريبًا هو ١٧٥٠٠٠٠ سنة مضت. ومن ثم دخلت أثرية علم الإنسان في مرحلة جديدة، وكان محل الميلاد: أفريقيا السوداء. ولا يمكن إطلاق صفة «إنسان» على «إنسان الزنج» الذي يُطلق عليه «إنسان» تجاوزًا للتقريب إلى الأفهام والوقوف على أرضية فهم مشتركة بين المختصين والعامة على السواء؛ لأن هناك أسبابًا كثيرة تحول دون ذلك وليس هذا مقام ذكرها.

وكان الابن «ريتشارد ليكي» يجري أبحاثًا كبيرة في الآثار والأحافير النباتية والحيوانية عند الطرف الشمالي من بحيرة «رودلف»، فاكتشف برهانًا

ساطعًا على وجود جنس «الإنسان العاقل» («الهومو سابينس») ممثلاً في عدد من العينات التي كانت معاصرة تمامًا لحفريات الحيوان. ثم عثر الأب «لويس ليكي» على أولى الحفريات الجزئية لما يعرف باسم «الإنسان الصانع» (هومو هابليس) في رواسب تعود إلى الحقبة التي ينتمي إليها «إنسان الزنج» الذي عثر عليه، ويشترك النوعان في ثقافة واحدة، وهذا الإنسان الصانع هو الذي صنعَ الأدوات الموجودة في رواسب أخدود «أولدفاي»، ويعد السلف المباشر للإنسان؛ لذا أطلقت عليه صفة «الصانع».

ومن الجدير بالذِّكر، أنه في (٣٠ من شهر نوفمبر عام ١٩٧٤)، عُثر على إنسان آخر في شرق أفريقيا أيضًا أُطلقَ عليه اسم «لوسي»، وعاملَتْه وسائل الإعلام على أنه «شخصية مهمة جدًّا قادمة من الماضي». واكتشفه الباحث «دونالد جوهانسون» في منطقة «هدار» في أثيوبيا، وهيكله العظمي كامل بنسبة ٤٠٪ وهو لأنثى كان ارتفاعُها حوالي متر، ويؤرخ بحوالي ٣١٨٠٠٠٠ سنة مضت، وأُطلقَ عليه «أسترالو بيثكس أفرانسيس»، وهو سلف مبكر لـ «الإنسان العاقل» («الهومو سابينس»، ويشبه الطائفة الإنسانية المعاصرة). ولم يوجد أيُّ دليل على استخدامه للأدوات. وفي عام ١٩٧٥م، عثر «جوهانسون» على ما عرف بـ «العائلة الأولى في تاريخ البشرية»، وهي مئات من البقايا المتحفرة، العائدة إلى عصر «لوسي»، وربما مات أصحاب هذه البقايا في كارثة معًا، مثل فيضان غادر قاتل أو ما شابه، مما يوضح ترابطهم في هذا التاريخ المبكر من عمر الإنسانية الأزلي الطويل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٥)
نشأة علم الآثار الغارقة

عندما غرقت السفينة الأسطورية «تيتانك» في عام ١٩١٢م، وعلى متنها حوالي ١٥٢٢ راكبًا، واستقرت في قاع المحيط على مسافة تبلغ أربعة كيلومترات، ظنَّ بعضُ الناس في العالم أن هذه أول سفينة تغرق بهذه الضخامة في مياه المحيطات أو البحار، لكنَّ الحقيقة غير ذلك تمامًا.

فقد غرقت من قبل سُفن بحرية عديدة، ومن عصور أقدم، فعلى سبيل المثال، غرقت إحدى السفن الكنهانية في حوالي عام ١٣٠٠ ق.م، أي ترجع إلى ما يُطلِق عليه مؤرخو الشرق الأدنى القديم «عصر البرونز المتأخر». وكانت تحتوي على العديد من الكنوز الأثرية من الذهب والفضة والأبنوس وعاج الأفيال وأفراس النهر، في منطقة «أولوبورون» في جنوب غرب تركيا، ونجح غواصو معهد الآثار البحرية من خلال ٢٢٥٠٠ غطسة منفردة، في رفع عشرين طنًا من آثار هذه السفينة الغارقة في أعماق تصل من ٤٤ إلى ٦١ مترًا، أثناء أصياف الأعوام (١٩٨٤ - ١٩٩٤م).

وكان أبو الآثار البحرية «جورج باص» قد قام بتجربة مماثلة في عام ١٩٦٠م، عندما كشف عن سفينة غارقة تعود إلى عصر البرونز المتأخر في تركيا أيضًا، وكانت قد غرقت حوالي عام ١٢٠٠ ق.م. في «كاب جلدونيا» شرق منطقة «أولوبورون». وكانت أول أقدم سفينة تكشف كلية في قاع البحر الأبيض المتوسط. وعثروا على أشياء عديدة تفيد الدراسات الهوميرية (نسبة إلى شاعر الإغريق الأعظم هوميروس)، وعلماء المصريات (إذ عثر على أول جعران ذهبي يصور ملكة مصر الشهيرة الجميلة «نفرتيتي» زوجة الملك الفيلسوف «أخناتون» العظيم)، ودارسي تاريخ الموسيقى والتكنولوجيا، وتاريخ الفن، وتاريخ الكتابة، وتاريخ الاقتصاديات. وعندما قام «جورج باص» بهذا الاكتشاف المهم، كان طالبًا ما يزال خطواته الأولى نحو تأسيس «علم الآثار البحرية» أو ما يعرف بـ «آثار تحت الماء» الذي كرَّس له حياته، وأصبح المؤسِّس الأول له، وأسَّس «معهد الآثار البحرية» في تكساس في الولايات المتحدة الأمريكية.

وبالرجوع إلى الحديث عن السفينة الكنعانية الغارقة في منطقة «أولوبورون» التي أنقذها «جورج باص» وفريقه في الفترة من (١٩٨٤ - ١٩٩٤)، ونجد أنها كانت تحمل العديد من التجار والمسافرين بتجاراتهم المتنوعة على ظهورها، وتشير آثارها المكتشفة إلى أنها ذات أصول شرقية. واحتوت السفينة على العديد من المراسي الحديدية ذات الأصول الشرقية أيضًا، والمناضد الخشبية

للكتابة كالموصوفة في نصوص الشرق الأدنى القديم، وتمثال كنعاني من البرونز لسيدة، مطلي بالذهب، قد يمثِّل الإلهة الحامية للسفينة (؟).

وأظهرت هذه السفينة حجم شبكة العلاقات التجارية الضخمة التي كانت عليها حال الشرق الأدنى القديم في هذه الفترة. ويتضح هذا بوضوح من خلال الآثار المكتشفة، فقد عثر على مواد تجارية كثيرة من منتجات أفريقيا الاستوائية، وخرز الكهرمان القادم من شمال أوروبا، والبرونز الإيطالي، ورأس مقمعة حجرية من ساحل البحر الأحمر لرومانيا، والختم الأسطواني المنحوت في العراق القديم، وجعارين تذكارية من مصر، وفخار ونحاس من قبرص، وسيراميك خرز وأختام اليونان، وقصدير من أفغانستان، وأدوات فخارية وأختام وأسلحة من الساحل السوري - الفلسطيني، ومعظم هذه الآثار في حالٍ جيدٍ من الحفظ.

وهكذا قام الرائد «جورج باص» بتأسيس «عِلم الآثار البحرية» الذي ظلَّ يحلم ويعمل به طيلة حياته المديدة. واستمرت المدارس من بَعده في فتح الآفاق نحو العثور على العديد من الآثار الغارقة والسفن التي غابت في جوف المحيطات والبحار الصاخبة والهادئة على السواء منذ زمن بعيد. وكان اكتشاف واسترجاع آثار السفينة الكنعانية التي غرقت في منطقة «أولوبورون» منذ عام ١٣٠٠ ق.م. هو الدافع الأساسي نحو البحث عن هذه الآثار الغارقة، ومن هنا تأتي أهمية «باص»، باعتباره الأول على رأس قائمة طويلة عريضة من علماء الكشف عن الآثار الغارقة التي أنقذت في القرن العشرين من مياه المحيطات والبحار بأنواعها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٦)
أسرار كهف لاسكو!

عندما شاهد العالم رسومَ كهف «لاسكو» في فرنسا، أذهلت هذه الرسوم ذات الطبيعة البدائية الخاصة بإنسان الكهف، وخياله، فقد كانوا هؤلاء البشر الذين رسموا هذه الرسوم الرائعة، منذ أكثر من ١٧٠٠٠ سنة مضت، فنانين على درجة عالية من المهارة والاحتراف، وتُعَدُّ أعمالهم هذه أفضل كثيرًا من أعمال فنية عديدة تعود إلى زماننا المعاصر وتمتلئ بها متاحفنا!

القصة وراء الاكتشاف

تعود قصة هذا الاكتشاف الذي جاء بمحض المصادفة البحتة، إلى يوم (١٢ من شهر سبتمبر من عام ١٩٤٠م)، حين جرى الكلب الخاص بالصبي الفرنسي «مارسيل رافيدات» مطاردًا أرنبًا بريًّا، فسقط في فتحة في مرتفعات «لاسكو» في «مونتياناك» في إقليم «الدردوني» في فرنسا. ومن حُسن الحظ أن «مارسيل» وثلاثة من أصدقائه كانوا في إثر الكلب. فاستخدموا سكينًا منزليًا كان معهم لتوسيع الحفرة، وأخذوا شموعًا معهم ليشاهدوا ما بالداخل. وعقدت الدهشة ألسنة الصغار وأزاغت أبصارهم فنون الإنسان القديم التي وقعت عليها أعينهم؛ فهذه رسومٌ لخيول وأبقارٌ منفَّذة بأسلوب فني بديع ذي تفاصيل عديدة، بالألوان، وتبدو هذه الحيوانات المصورة وكأنها حية في حركتها، وتعددت أساليب التصوير داخل هذا الكهف المثير، واستخدمت أسطحه في إكمال العديد من المناظر الفنية المصورة. ويبلغ عدد صور الحيوانات الملونة حوالي ٦٠٠ صورة قائمة بذاتها، ويعد هذا الفن المصور على أسطح هذا الكهف مرحلة مهمة جدًّا في فن التصوير على أسطح الكهوف في العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا، الذي بدأ منذ حوالي ٢٠٠٠٠ سنة مضت.

وفي اليوم التالي، عاد الصبيان بالمصابيح وفحصوا الكهف كلَّه، ثم أخبروا ناظر مدرستهم السابق «ليون لافال»، وطلبوا منه أن يدخل معهم إلى الكهف المدهش، ثم ذاع سر هذا الكشف الاكتشاف المدوي، وتوافد أستاذة كبار مجالات الفنون والعمارة والآثار لزيارة الكهف الفريد من نوعه. واحتوى الكهف ستة ممرات أو صالات مزينة بحوالي ٦٠٠ صورة و١٥٠٠ نقش. وليس معروفًا عدد الرسامين الذين زينوا جدران هذا الكهف، وأرخت هذه الرسوم والنقوش ما بين ١٨٥٠٠ - ١٧٠٠٠ عام مضى. وتسارع الجميع إلى الحفاظ على هذا الكهف الثمين. وفُتحَ للزيارة عام ١٩٤٨م، وبحلول عام ١٩٦٢م، كان عدد زواره زائر ١٠٠٠٠٠ في العام، مما أثَّر على رسومه التي لا تُقدَّر بثمنٍ،

فأغلق في وجه الزيارة منذ عام ١٩٦٣م إلى الآن. وصُنعَت نسخة طِبق الأصل منه في السنوات التالية، وأُفتتحَتْ للزيارة عام ١٩٨٣م، يزورها حوالي ٣٠٠٠٠٠ زائر في العالم. وليس هذا أول ولا أقدم كهف مليء بالرسوم أو النقوش يُكتشَف في أوروبا، فهناك كهف «ألتاميرا» في إسبانيا الذي اكتشف في عام ١٨٧٩م، وكهف «شوفت» في فرنسا نفسها، الذي عثر عليه في شهر ديسمبر من عام ١٩٩٤م، ويعود إلى (٣٢٤٠٠ - ٣٠٣٠٠) عام مضى، ويحوي رسومًا رائعة أيضًا، وهناك أكثر من ٣٠٠ كهف أو مأوى تمتلئ برسوم أو نقوش من العصر الحجري القديم، اكتشفت في كل أنحاء أوروبا من الأندلس في إسبانيا إلى «أورالس» في روسيا.

لكن أهمية كهف «لاسكو» تكمن في أنه غني جدًّا برسومه وموضوعاته، وفنه المدهش والأخَّاذ للغاية، وأظهر براعة الإنسان العاقل أول مبدع في الفنون في العالم الذي أخرج هذه الرسوم الفنية الرائعة على هذا النحو المذهل، وأوضح أيضًا كيف أن جذور الفن تضرب عميقًا في أصول البشرية. وتعددت الآراء التفسيرية لهذه الرسوم، فهناك من رأى أن الهدف من وراء هذه الرسوم هو هدف سحري قصدَ به الفنان أن يسيطر على أكبر عدد من هذه الحيوانات بدلاً من البحث عنها ومطاردتها في أماكن بعيد، مما يجنبه عناء البحث، أو أن الهدف من ورائها كان دينيًّا بحتًا قصد به القوم التعبير عن معتقداتهم وآلهتهم البدائية التي يتعبَّدون إليها؛ حتى تمن عليهم بالعطاء الوفير من الصيد، وتقيهم الشر وتدرأ عنهم الأذى، وربما عبرت هذه الرسوم عن رغبة ما في السيطرة والتسلط على هذه الحيوانات بحسبها أقوى وأهم الكائنات في هذه الفترة والبيئة لدى هؤلاء، ويعني هذا أن من يسيطر على هذه الحيوانات، يستطيع السيطرة على هؤلاء البشر بالتبعية والضرورة؛ فالحيوانات هي مصدر للطعام والثياب والثراء، وتُعَدُّ أفضل الممتلكات في هذه الفترة وهذا المجتمع البعيد عن زماننا الحالي، فيما قد تكون هذه الرسوم مرتبطة بأساطير قديمة لدى هؤلاء البشر يعبرون من خلالها عن رؤيتهم للعالم ويتذكَّرون ما مرَّ في حياتهم من أحداث وذكريات ويشيرون فيها إلى أسلافهم الأقدمين المبجلين، على الرغم من عدم وجود صور تمثل آدميين سوى صورة واحدة، أو أنها ترمز إلى أشياء ما في مخيلتهم لم يستطيعوا التعبير عنها إلا بقوة الرسم، ولم ندرِ نحن ماهيتها.

وفي النهاية، تجدر الإشارة إلى أن هذا الكهف لم يكن مكانًا للسكن على الإطلاق، بل كان مكانًا مخصَّصًا للزيارات الموسمية التي يقوم بها سكان هذه المناطق في مناسبات معينة للرسم على جدرانه مزيدًا من صور هذه الحيوانات، وممارسة طقوسهم، والجلوس معًا، والتودد إلى بعضهم البعض، ومشاهدة رسومهم السابقة ماثلةً أمامَهم، وتعديلها إن وجب التعديل، وإضافة ما يرونه مناسبًا، إن لزمت الإضافة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(٧)

حقيقة إنسان الجليد

عندما عثر على جثة قديمة محنطة ترجع إلى خمسة آلاف عام في نهر جليدي في جبال الألب على الحدود الإيطالية - النمساوية، منذ حوالي تسع سنوات مضت، تغيَّر مفهومنا عن أسلافنا تمامًا. فلم يعد العصر الحجري القديم المتأخر مجرد حفائر ومكتشفات فقط، فقد أعطى إنسان الجليد هذا العصر وجهًا جديدًا ودهشة ممزوجة بالحلم والمتعة.

البداية

تبدأ أحداث قصته التراجيدية بموته متجمِّدًا في العراء وحيدًا، ثم تكاثرت عليه الثلوج إلى أن أخفت جثته عن أعين وأنوف أكلي الجيف. وساهم الجليد البارد في الحفاظ على جثته. ثم جاء صيف شديد الدفء بعد أن غاب فترة طويلة تقدَّر بخمسة آلاف عام، فاُكتشف رجل الجليد «أوتسى». وأعاد باكتشافه الحياة إلى الأوروبيين القدماء. وقد اكتشفه اثنان من السياح الألمان في يوم (١٩ سبتمبر عام ١٩٩١م)، في طبقة متجمدة يبلغ ارتفاعها ٣٢١٠ سم على الحدود بين النمسا وإيطاليا في المقاطعة المستقلة «بولزانو» (جنوب تيرول). ولم يُحفَظ الجسد فحسب، بل حُفظت أدواته وأسلحته وملابسه كاملة، التي تكون نادرة البقاء عادةً؛ ليختبرها الأثريون. وجاءت تسميته بـ «أوتسي» نسبةً إلى وادي «أوتس» الذي عُثر عليه فيه. وظن البعض عندما عثر عليه في البداية، أنه واحدٌ من متسلقي الجبال العديدين الذين اختفوا في جبال الألب في العقود القليلة الماضية، وقد أحدث اكتشافه صدمة لدى البوليس النمساوي وأهل الجبال المتسلقين؛ لأنهم غير متخصصين في الآثار، ولم يخطر ذلك على بالهم مطلقًا. ولقد عانت الجثة بعض الشيء قبل أن تحدد طبيعتها الأثرية وتأخذ طريقها إلى معامل البحث والدراسة العلمية الجديدة.

وعلى الفور، حُرِّر «أوتسى» من الجليد المتراكم عليه، وحُفظ في مخزن بارد يلائم طبيعة البيئة التي جاء منها، وهكذا واجهَ العلمُ الحديثُ بكلِّ سلطانه الكبير. واُختبرَ، وقُيس، ووُجدت طبقة من الغبار على ملابسه. وأُرخَّت خمسة تقارير خاصة بمعامل تأريخ راديو - كربون المتطورة وفاة «أوتسي» بين (٥٣٥٠ - ٥١٠٠) عام قبل الآن. وكان طول رجل الجليد في حياته حوالي ١٦٠.٥ سم، وعاش ما بين (٤٠ - ٤٥) عامًا من ناحية العمر. وحمل جسده عددًا من الأوشام في شكل خطين متوازيين حول الرسغ الأيسر، أو على هيئة خطوط طولية أو متقاطعة على كل من جانبي منطقة العمود الفقري، والركبة

اليمنى، وربلتي الساقين، ورسغي القدمين. ولم تكن هذه الأوشام وسيلة سحرية أو لروابط من نوعٍ ما. فقد أوضحت أشعة «X» أنه كان هناك التهاب في المفاصل والعظام، ويثبت هذا أنها كانت وسيلة علاجية على نحوٍ من الأنحاء. ولعلَّ الكنز الحقيقي الذي عُثر عليه علاوة على ما تقدَّم هو ملابس هذا الإنسان التي تعلوها طبقة الغبار.

ويبدو أن «أوتسي» كان إنسانًا متآلفًا مع حياة الجبال ومعدًّا إعدادًا جيدًا للتعامل معها. وتتكون ملابسه من رداء من الحشائش مما يجلب له أكبر قدرٍ من الدفء والراحة في الحركة. وحذاؤه مدهش للغاية: فهو ضدَّ الماء ويصدُّه، وواسع تمامًا وطويلٌ، وصُمِّم بحيث يتناسب مع المشي في الثلوج. وصُنع نعلاه من فرو الدب، أما الأجزاء العليا فصُنعت من جلد الغزال، ووُجدَتْ حشائش ناعمة حول القدمين وفي الحذاء، وشُكِّلت لتشبه الجوارب في عصرنا الحالي، وكان الهدف من ورائها هو تدفئة قدميه وساقيه، وكان يحيط جسمه بشبكة مصنوعة من لحاء الأشجار.

ومن خلال دراسة وأسلحته، وأدواته، ومخزونه من الأدوات البديلة، اتضح أنها سمحت له بالبقاء في قريته الأصلية دون الحاجة إلى إمدادات إضافية منتظمة. وقد وُجدَت معه فأس لها نصل نحاسي، وخنجر ظراني له جراب مصنوع من الألياف النباتية. وأوضحت البقايا النباتية التي عُثرَ عليها في أدواته، وملابسه، وأسلحته، أنه عاش في تجمُّع سكاني حصد لتوه محصول القمح في وقت قصير قبل أن توافيه المنية مباشرة. وكانت أدواته فقيرة من ناحية الشكل، ومنها قوسان بسهمين، و١٢ سهمًا غير جيد الصنع.

ويبدو أنه غادر المكان مضطرًا، تحت ضغطٍ ما، دون أن يأخذ معه كل أدواته، وهربَ متخذًا طريقه فوق سلسلة جبال الألب الرئيسة. وفشلَ في الهرب؛ فأعطته وفاته خلودًا أبديًّا مضاعفًا لم يُمنَح لأحد من أفراد قريته الكثر. وأصبح خير سفير للماضي، وألقى الضوء على أحد أسلاف البشرية العظام، وغيَّر نظرتنا تمامًا عن أهل عصور ما قبل التاريخ. ويحوي متحف «بولزانو» في إيطاليا نموذجًا متخيلاً لهذا الإنسان، فيما بقيت جثته محل دراسة العلماء المختصين إلى الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٨)

حضارة المايا تخرج عن صمتها!

حاولَتْ أجيال عديدة من العلماء فكّ طلاسم حضارة «المايا» وحل رموزها السحرية مثل «أهرام الشمس»، والرياضيات، والفلك، والعلوم، والفن. وحاولت كذلك فك شفرة نقوشها السحرية المغلقة، وتعد اللغة الوحيدة المكتوبة ما قبل العالم الكولومبي الجديد. وعلى مدار ٤٥٠ عامًا، فشلت كل الجهود والمحاولات. ثم انكسر الطلسم وافتتح سحر هذه الحضارة العريقة التي تُعَدُّ واحدةً من أكبر حضارات العالم إثارةً وتأثيرًا، وأصبحَتْ حضارةً حيةً، وخرجت إلى الوجود لتبهر العالم بعد أن نطقت لغتها الخاصة، وتوقف الوسطاء عن الحديث بلسانها.

لقد مضت عصور طويلة على هؤلاء الذين درسوا حضارة أمريكا الوسطى المعروفة بـ»المايا» دون معرفة حقيقة واضحة. ثم صار انهمار المعلومات والمعرفة بهذه الحضارة أشبه بالفيضان الهادر، خصوصًا في العقدين الأخيرين، فقد فُكَّت نقوش «المايا» وأنتجت لغة مكتوبة، لم يعد يقرأها أحد منذ القرن السادس عشر الميلادي. ويُعَدُّ هذا الاكتشاف أعظم الاكتشافات الأثرية الأخيرة الجديرة بالاحترام والتقدير. ونستطيع الآن بكل سهولة معرفة كل شيء كان غامضًا عن حضارة «المايا» القديمة، وتستطيع من خلال لغتها الخاصة أن تخبرنا بقصتها، فقد فتحت أبوابها على قلب التاريخ النابض بأقصى سعتها، وازدهر الدين المشكِّل لهذه الحضارة، واستمرت حية في الفترة من عام ٢٠٠ - ١٥٠٠ م.

وللوهلة الأولى، تبدو نقوش «المايا» المكتوبة أشبه بشكل الباروك للصورة المكتوبة. واستخدم أهل «المايا» فيها أشكالاً ورموزًا عديدة مثل رؤوس الحيوانات، وأجزاء من الجسم البشري، وأشكال الآلهة، وأشياء أخرى عديدة مكتملة الفاعلية السحرية، ورُتِّبَت كلُّها في كتلٍ كي تكون النص المكتوب الأساسي. وكان من الشائع من قبل، ولعقودٍ عديدة طويلة، أن هذه النقوش لا تعني شيئًا على الإطلاق أكثر من كونها نظامَ كتابةٍ تصويرية فقط، من خلاله تمثِّل كل صورة كلمة رئيسة أو فكرة ما. وثبت خطأ هذه الفكرة تمامًا، وثبتَ أن كتابة «المايا» ليست كتابة تصويرية فقط بل كتابة صوتية أيضًا، استخدمت مجموعة من العلامات، كلٌّ منها يمثل بعض المقاطع الساكنة أو المتحركة، لنطق الكلمات.

ولقد دُرسَت بعض من المناطق القليلة في حضارة «المايا» مثل «كوبان» و«بالنك»، في بداية القرن العشرين، كذلك بعض النصوص القليلة ذات

المنقوشة على لوحات حجرية غالبًا. وكان معظم كلمات «المايا» القديمة، متفرقًا، إلى أن جاء عام ١٩٥٠م، عندما قدَّم اثنان من الدارسين المهمين اللذين عملا باستقلالية تامة وتحرُّر في الرؤية مع خلفية كبيرة مسبقة عن هذه الحضارة المهمة، وحققا نجاحًا عظيمًا في إماطة اللثام عن هذه الحضارات ذات الأسرار الدفينة، وعوَّضا ما فشل فيه الآخرون لسنوات طويلة.

والأول هو الباحث الروسي الشاب آنذاك «يورى كنوروسوف» الذي كان له اهتمام كبير باللغات ونظم الكتابة. وزار أرض حضارة «المايا» أثناء الحرب العالمية الثانية لدراسة لغتها، مدفوعًا بقراءة نسخة طِبق الأصل مكوَّنة من ٧٤ صفحة مميزة من «كتاب المايا» المحفوظ في المكتبة الملكية في «درسدن» في ألمانيا، والذي أُحضرَ إلى أوروبا من المكسيك في بداية القرن السادس عشر الميلادي.

وشرع «كنوروسوف»، بعينيه الثاقبتين وخبرته الطويلة بالكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة، وكتابات أخرى عديدة، في دراسة نقوش «المايا» عن طريق بعض الأفكار المسبقة التي ادعاها الباحثون الغربيون، ثم كرَّر الزيارة بعد ذلك. ودرس «ألفبائية لاند»، سيئة السمعة، التي كتبها في سنوات ١٥٦٠م، الراهب الإسباني «ديجو دي لاند»، الذي حطَّم عددًا كبيرًا من كتب «المايا» المكتوبة على لحاء الأشجار؛ باعتبارها مدنسة في رأي قداسته! وفي صفحات قليلة قصيرة، وصفها «لاندا» قائلاً: «فصول مؤكَّدة، أو رسائل كتبوها في كتبهم، وأمورهم القديمة وعلومهم». وأصرَّ في دراسته غير العلمية أن «المايا» استخدموا «ألفبائية حروف» مثلما فعل الأوربيون تمامًا! بل وزود النقوش برسوم؛ ليجعلها ممثلة لألفبائية «المايا». وكانت هذه الرسوم المضيفة غير ناضجة بالمرة، ومن الصعب إلحاقها بالنصوص القديمة نفسها. وقرَّر معظم الدراسين أن الألفبائية لا يمكن أن تكون مكونة من مئات الرموز أو العلامات التي اُستخدمت في نصوص «المايا» القديمة.

وغاص «كنوروسوف»، واستنتج أن فشل الراهب «لاندا» الأساسي يرجع إلى أنه أساء فهم معنى كتابة «المايا»، وأنه أخضَع هذه الكتابة إلى النُّطق الإسباني، فضلاً عن اعتقاده أن النقوش تمثِّل حروفًا. وتحقق «كنوروسوف» من أن هذه النقوش لا تمثِّل حروفًا، بل بعض المقاطع الكتابية. واختبر فكرته عن طريق نسخة مكتبة «درسدن» التي في حوزته، وبسرعة جاءت النتائج مبشرة، ونشر رؤيته هذه في عام ١٩٥٢م؛ ونظرًا لأنه نشر هذه الدراسة الأولية بشكل أساسي في بلده الاتحاد السوفيتي، فأخذت العديد من السنوات حتى اعترف بها الغرب. ومع مرور الزمن أصبحت نظرية الشاب

«الروسي» «كنوروسوف» هي الصائبة، خصوصًا تفسيره طبيعة هذه النقوش.

ومن بين الدارسين الذين تعلَّقوا بدراسة «كنوروسوف»، الباحثة الروسية المولد «تاتنيانا بروسكورياكوف» من متحف هارفارد الأمريكي. فقد أعجبت بأفكار مواطنها «كنوروسوف»،» وطبعَت بحثها حول لغة «المايا» في عام ١٩٦٠م، وذكرت فيه أن نقوش مدينة «بيدراس نجراس» - إحدى مدن حضارة المايا - احتوت على نماذج من تواريخ اتبعها مؤرخون معاصرون، مثل الميلاد، وموت الملوك وأقاربهم وهكذا. أوضحت الدلالة التاريخية لهذه النقوش، فيما انصبَّ عمل مواطنها «كنوروسوف» على إيجاد قيمة صوتية وقرائية هجائية لهذه النقوش؛ أي أن عملهما أكمل بعضه البعض.

وفي العقود التالية، تزايَد الاهتمام بأدلة «كنوروسوف» اللغوية، وأدلة «بروسكورياكوف» التاريخية. ويدين العديد من الباحثين في أنحاء العالم من المهتمين بدراسة حضارة «المايا» لهذين الباحثين الروسيين العظيمين بالفضل في الكشف عن أسرار هذه الحضارة التي كانت غامضة زمنًا طويلاً، وبفضل جهودهما أصبحَ أكثر من ٨٠٪ من نقوش «المايا» قابلًا للقراءة اليوم، فضلًا عن المعرفة التامة بنظام الكتابة الذي اتبعه أهل الحضارة العريقة الغامضة المثيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٩)
أسرار حضارات أمريكا المدهشة!

يُعَدُّ البحث والتنقيب عن بقايا سكان أمريكا الأوائل من الموضوعات المثيرة للاهتمام والجدال. ففي بداية عام ١٩٩٠، وُجدَت لقية أثرية فريدة بالقرب من «نيومكسيكو»، وأضافت حوالي ٧٠٠٠ عام إلى تاريخ الإنسان في العالم الجديد.

إنها قصة رعاة البقر العزل الذين وُلدوا عبيدًا. والتي بدأت أحداثها في «رد هورس أريو»، بالقرب من شمال شرق «نيومكسيكو»، في بلدة «فولسوم»، وتحديدًا في شهر أغسطس عام ١٩٠٨م، حينما لاحظ «جورج ماك جونكين» وجود كومة من العظام على ضفة «أوريو». ولما تقصى في البحث، وجد حفرة مصنوعة بمهارة فائقة، وبها مجموعة من الأدوات الحجرية المصنوعة من الظران (الزلط)، منفذة بدقة متناهية. وكان الإنسان القديم يستخدمها في هذا العصر لقتل وصيد الحيوانات المفترسة والأليفة دفاعًا عن نفسه وجلبًا لطعامه. ولم يستطع «جونكين» لفت أنظار الآخرين إلى أهمية العظام القديمة التي عثر عليها. فاهتم بها «كارل شافاخايهم» الذي زار الموقع، وجمع العظام في عام ١٩٢٢م.

وفي عام ١٩٢٦م، ذهب إلى مدينة «دنفر» وعرضَها على «جس فجنس» مدير متحف «كولورادو» للتاريخ الطبيعي. ومنذ ذلك التاريخ، توالَتْ الاكتشافات الأثرية في العالم الجديد، وأوضحت «تاريخ ما قبل التاريخ» في هذه المنطقة من العالم التي كانت جَدّ مجهولة من قبل، ولم يكن العلماء يعتقدون في وجود حضارات هذه المنطقة من العالم الجديد ذات السكان الأصليين من الهنود الحمر. وتُعَدُّ هي حضارات الأرض الأمريكية بأقسامها الثلاثة أمريكا الشمالية، وأمريكا الوسطى، وأمريكا الجنوبية أو اللاتينية.

ويضم العصر ما قبل الكولومبي كلَّ عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية التي مرَّت بها الأمريكتان قبل ظهور تأثيراتٍ أوروبية مهمَّة في الأمريكيتين، وهو ما يعني الفترة التي تقع بين الاستيطان الأول في العصر الحجري القديم والاحتلال الأوروبي في مطلع العصر الحديث.

واشتمل العديد من حضارات العصر قبل الكولومبي على ملامح من بينها وجود تجمعات سكانية دائمة أو حضرية، وزراعة، وعمارة مدنية وتذكارية، وأنظمة عشائرية معقدة التركيب. وقد قُدِّرَ لبعض تلك الحضارات الزوال قبل غزو الأوروبيين للعالم الجديد بفترات طويلة، ولم يعد هناك ما يدل على وجودها السابق إلا بعض الأدلة الأثرية، بينما قُدِّرَ لحضارات أخرى أن تعاصر

تلك الفترة التاريخية، وهي الحضارات التي ذكرت في كتابات تلك الفترة. وكانت لقلة من تلك الحضارات سجلات مدونة (لعل أشهرها حضارة المايا). غير أن معظم الأوروبيين في تلك الحقبة نظروا إلى هذه النصوص على اعتبار أنها هرطقات، فكان مآلها إلى المحارق المسيحية، ولم ينجُ منها إلى اليوم إلا وثائق قليلة للغاية استقى منها المؤرخون أضواءً قليلة للغاية عن الحضارة والثقافات القديمة.

ووفقًا لوثائق وكتابات كل من الأمريكيين الأصليين والأوروبيين، فقد كانت الحضارات الأمريكية في الوقت الذي حلَّ فيه الأوروبيون ذات إنجازات كبيرة، من بينها مدينة تينوتشتيتلان، التي شيدها الأزتيك (في موقع مدينة مكسيكو الحالية)، وكانت من أكبر مدن العالم آنذاكٍ، وكان تعداد سكانها في ذلك الحين حوالي مائتي ألف نسمة. كما كانت للحضارات الأمريكية أيضًا إنجازات مهمة في علميّ الفلك والرياضيات. وتتنوع في أساطير الخلق عند الأمريكيين الأصليين الحكايات عن أصول القبائل المختلفة، فبعضُهم «وُجِدوا منذ الأزل» وآخرون خلقَتَهم آلهة أو حيوانات، وبعضهم حلوا من اتجاه معين، بينما جاء آخرون «عبر المحيط».

وتنقسم حضارة أمريكا الشمالية وشمال المكسيك إلى حضارات جنوب شرق وشمال شرق وجنوب غرب وكاليفورنيا والحوض الكبير. وكان سكان شمال أمريكا يعتقدون أنهم جزء من العالمين الروحي والطبيعي. وكانت أعيادهم مرتبطة بمواسم الحصاد والزراعة. وكانوا يمارسون الرسم الملون على الرمل باستخدام المساحيق الطبيعية الملونة. وكانت نساء قبائل حضارة بويبلو تصنع الفخار المصقول من الطمي والملون بالزخارف الهندسية. واشتهر هنود جنوب غرب بصنع السلال.

وكان سكان كاليفورنيا الأصليون مشهورين بصنع المشغولات من الحجر وقرون الحيوانات والأصداف والخشب والفخار. وكانوا ينسجون ملابسهم من الأعشاب ولحاء الشجر والجذور النباتية وسيقان الغاب. وصنعوا الحصر والأواني. وكان للجاموس الوحشي أهميته بالنسبة للشعوب الأصلية. لأنهم كانوا يصنعون من جلوده الخيام والسروج والسياط والأوعية والملابس والقوارب. وكانوا يصنعون من عظامه السهام وأسنة الرماح والحراب والأمشاط والخناجر وإبر الخياطة. وكانوا يصنعون من قرونه الأبواق والأكواب، ومن حوافره الغراء. ولم يستأنسوا الجاموس الوحشي، كما فعل الإنسان في آسيا وأفريقيا؛ لأنه كان متوفرًا. وكانوا يصطادونه بالسهام ويتعقبون آثار قطعانه عندما كانت ترعى في مراعيها أو تقترب لمصادر المياه لتشرب منها. لهذا أجادوا عِلمَ اقتفاء الأثر. وكانوا يعرفون اسم القبيلة من أثرِها ويحصون عدد أفرادها ووجهتهم ولاسيما بعد إغارتهم عليهم. لهذا كانوا

يحددون أقصر الطرق للحاق بهم وأسرعها لتعقبهم واللحاق بهم والانتقام منهم. وكان سكان المدن لا يسلمون من غارات الرعاة، فكانوا يحرقونها ويدمِّرونها. وكان الأمريكيون الأصليون في الآباش يتجهون من الشمال الأمريكي إلى الجنوب حيث ممالك المايا والتولتك، ليخربوها ويحرقوها. وكانوا يجيدون الكرَّ والفرَّ في القتال. وكانت أعراف وتقاليد القبائل الأمريكية الأصلية تشبه ما كان سائدًا في القبائل الرعوية الرُحَّل في كل أرجاء العالم القديم. وكانت هذه الأعراف شفاهية. فمَن كان يستجير بقبيلة أجارته حتى ولو كان عدَّوا لها وتركته لحال سبيله. ولا يُقَتل الأطفال أو النسوة أثناء القتال، ولا يقاتلون بالليل.

وكان الإنسان الأول بأمريكا الشمالية يعيش في الكهوف أثناء العصر الحجري. وكان يزخرفها بصوره وصور الحيوانات. وكان يستعمل الحجر لصنع حرابه ويصقل به سكاكينه وسهامه. وكان يصنع بيديه الفخار. وظهرت بأمريكا الشمالية حضارة بويبلو القديمة التي نسجَت القطن وأقامت البيوت من عدة غرفٍ من بينها غُرفةٌ تحت الأرض ليمارس فيها الطقوس الدينية. وصنعت تماثيل المرمر والبلط النحاسية وعقود من الأصداف. وكان يصنع بها الفخار من خليط الطين مع الألياف النباتية والأواني المزخرفة بأشكال هندسية حول الحواف. وكانت المدن قد شُيِّدَت في شرق أمريكا الشمالية حيث كانت التجارة. وكانت تُبنَى فيها القري البسيطة. وكانت كل قرية تتكون من بيتين أو خمسة بيوت خشبية ودائرية. وكان قطر البيت ٣٠ قدمًا. وكانوا يدفنون موتاهم في شقٍّ تحت تلٍّ صغيرٍ. وكانت المقابر مزيَّنةً. وكانت الملابس من جلود أو شعر الحيوانات أو من ألياف النباتات. وكانت تُزيَّن بالريش والخرز وصفائح النحاس في شكل هندسي. وكانت بها المعابد التلية التي بها سلم. وكانت حولها القرى. وهناك ظهرت حضارة أدنا (٨٠٠ ق.م. - ٧٠٠ ق.م.) في وادي نهر المسيسبي، وحضارة هوبول (٤٠٠ ق.م. - ٤٠٠ م.) في الجانب الشرقي منه بجنوب شرق أمريكا الشمالية. وكانت الحضارتين متماثلتين.

وشهد جنوب غرب الولايات المتحدة الأمريكية حضارة صناع السلال (١٠٠ ق.م. - ١٠٠ م.). وكانت البيوت مكوَّنة من غرفة واحدة من الطين وبقايا الشجر. وكانوا يعيشون بالكهوف أو يدفنون موتاهم بها. وكانوا يعيشون على صيد الغزلان والسناجب والأرانب أو الكلاب البرية. وكانوا يمسكونها بالأيدي أو الشباك. وكانوا يصنعون الحقائب والصنادل من ألياف النباتات. ثم بعد سنة ٧٠٠ ق.م.، بنوا البيوت من الحجارة ونسجوا القطن.

كما ظهرت حضارة النحاس وحضارة الصيادين بالبر والبحر، ولاسيما حول البحيرات الكبرى بكندا والولايات المتحدة. وكانوا يصنعون من النحاس آلاتهم بطرقِه على الساخن أو البارد. لكنهم لم يعرفوا طريقة صهره ولا كيفية صبِّه

في القوالب كما كان متبعًا في العالم القديم منذ سنة ١٥٠٠ ق.م. وحول نهر إلينوي، تركت الشعوب الأصلية الشمالية آثارهم التي يرجع تاريخها ما بين سنة (٣٥٠٠ ق.م. و٢٥٠ م). وهي عبارة عن سكاكين عظمية وأنسجة قطنية سميكة. وقُرب بحيرة لاموكا، وُجدَت مكاشط ومطارق حجرية وأخشاب محفورة. وكانوا لا يعرفون صهر النحاس أو صبه. لهذا كانت المشغولات النحاسية بالطَّرق لصنع السكاكين ونصال الرماح. وكانوا يصنعون الحلقان من الأصداف ويتزينون بالأحجار الكريمة. وبصفة عامة لم تكن الحضارة الأمريكية تسير بإيقاع سريع النمو، كما كانت الحالة في بقية العالم القديم حيث شهد الحضارات الكبرى التاريخية. وكان الأمريكيون الأصليون يعيشون في غابات كندا على جمع الثمار وصيد السمك. وكانت لهم سماتٌ خاصة. وكانوا يحتفظون بنظام ثقافة ولغات خاصة بهم وكانت مستمدة من حضارة المايا.

وكان كثيرٌ من الشعوب الأمريكية الأصلية يؤمنون بثلاثة عشر أسطورة. وكانت بمثابة الكتاب المقدَّس لهم. وتتحدث هذه الأساطير عن مجيء آلهة بيضاء من الشرق عبر أمواج المحيط، ستكون مخلِّصة لهم من جميع الشرور والخطايا، وبالتالي كانوا يجمعون قِطَع الذهب والمعادن النفيسة ليقدموها قرابين إلى هذه الآلهة المقدسة حال ظهورها.

وهكذا عرفنا أشياءً كثيرة عن حضار «الصحراء» وآثارها الموجودة في نيفادا وأريزونا، وحضارة «فولسوم» وآثارها في تكساس وكلورادو ونيومكسيكو، وحضارة «كلوفس» وآثارها في نيو مكسيكو وكلورادو وأريزونا وأوكلاهوما. ثم تعدى الأمر ذلك وامتد البحث إلى حضارات أمريكا الجنوبية. وأزاحت تلك الكشوف الستار عن حضارات بالغة الروعة لم يكن من المتخيل وجودها مثل المايا، والإنكا، والأزتيك، وصناع السلال وغيرها. وكانت هذه العظام القديمة البسيطة هي السبب الرئيس في العثور على هذه الحضارات وفتح الطريق لـ «كريستوفر كولومبسو» ودخوله الأرض الأمريكية عام ١٤٩٣م واكتشاف العالم الجديد آنذاك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاتمة

إن ما سبقَ يوضِّح أن الآثار والاكتشافات الأثرية العظيمة والموجودة في المواقع الأثرية أو ما يُعرض البعض منها في متاحف العالم، هي الكنز الباقي للتعرف إلى ماضينا العريق. وكانت جهود علماء الآثار في مصر والعالم هي الوسيلة الفعَّالة التي جعلتنا ننعم بجمال وسحر تلك الآثار الجميلة في كل مكان من العالم.

وتُعَدُّ مصر هي قِبلة الآثار ووجهة العالم الأثرية والسياحية الكبرى. وما تزال مصر الفرعونية تسحر العالم وما تزال كنوز الفراعنة تبهر الأبصار والعقول وتخطف القلوب.

وسيبقى هذا السحر خالدًا ما دام هناك عقل يفكر وقلب ينبض وعين ترى وأذن تسمع على هذه الأرض، ذلك السحر الذي انفتح على العالم وغمر عبيرُه عقولَنا وقلوبَنا وأبصارَنا جميعًا عندما نجح جان - فرانسوا شامبليون في كشف رموز اللغة المصرية القديمة وإطلاع العالم على سِحر وأسرار الفراعنة بشكل علمي مؤسَّسًا بذلك عِلم المصريات في عام ١٨٢٢.

ومنذ ذلك الحين، ونحن ننعم جميعًا بسحر مصر الفرعونية الذي لا يُقاوم. السحر الذي لا ينتهي. وسوف يظل أبد الدهر محتفظًا بجلاله وهيبته. وسوف يظَلُّ يهبنا السعادة والمتعة اللتين لا تقاومان. فتحيَّةُ حُبٍّ وتقدير وإعجاب لمصر الغالية وحضارتها الساحرة التي لا ينبض جمالها وسحرها وغموضها وعشقها وروعتها أبدًا أبدًا.

وأؤكد على أن عشق الآثار هي الكلمة الحقيقية التي تجعلنا نتنفس تلك الاكتشافات في كل وقت وحين ونحبها ونستغرق في التفكير في كيفية تقديمها إلى الناس جميعًا من المتخصصين والجمهور العام بشكل جذاب كي يضفي جمالاً على جمالها ويجعلها تدخل القلب من أوسع أبوابه وتنير الروح وتغزو الوجدان وتسلب العقل من جمالها وروعتها التي لا تُقاوم.

فالعشق هو كلمة السر في نجاح أي شيء، وإن لم يكن هناك عشقٌ عند عالم الآثار للآثار، فلن يحقق في مجاله أيَّ نجاح يُذكَر. إن العشق هو المفتاح الحقيقي للنجاح في عالم الآثار وكشف أسرارها وسبر أغوارها وفك ألغازها وتعريفنا بجمالها وسحرها وتوضيح غموضها. والعشق هو أعلى درجات الحب. وأعتبر هذا الكتاب درسًا في عشق الآثار ودعوة صادقة له وللحفاظ عليها وتوظيفها على النحو الأمثل.

حفظ الله آثار العالم، وآثارنا المصرية، ومتَّعنا بجمالها الساحر.

وفي النهاية، أتمنى أن يكون هذا الكتاب قد نالَ استحسانكم. والله المستعان.
وهو الموفق، ومن وراء القصد. إنه نعم المولى ونعم النصير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المؤلف في سطور

د. حسين عبد البصير

* عالم آثار وروائي وكاتب مصري.

* حصل على درجة الليسانس في الآثار المصرية القديمة في كلية الآثار بجامعة القاهرة.

* حصل على درجتي الماجستير والدكتوراه في الآثار المصرية القديمة وتاريخ وآثار الشرق الأدنى القديم في جامعة جونز هوبكنز بالولايات المتحدة الأمريكية.

* ألَّف عددًا كبيرًا من الكتب والمقالات العلمية والروايات والقصص مثل «البحث عن خنوم»، و«الأحمر العجوز»، و«الحب في طوكيو»، و«ملكات الفراعنة: دراما الحب والسلطة»، و«أسرار الآثار: توت عنخ آمون والأهرامات والمومياوات»، و«إيبو العظيم»، وباللغة الإنجليزية «الصورة والصوت في مصر الصاوية».

* ألَّف كتاب «العيش للأبد: تمثيل الذات في مصر القديمة» مع مجموعة من أهم علماء المصريات في العالم، ويصدر له قريبًا كتاب «توت عنخ آمون: فرعون المجد والخلود»، وكتاب «سحر إسكندرية: الإسكندر وكليوباترا وأنطونيو»، غيرها.

* قام بكتابة فيلم «زوسر وإيمحتب: ثنائية الملك والعبقري» الذي أنتجته مكتبة الإسكندرية. وشغل العديد من المناصب في الداخل والخارج.

* كان مشرفًا ومديرًا للعمل الأثري بالمتحف القومي للحضارة المصرية بالفسطاط، والمتحف المصري الكبير بالجيزة، ومنطقة أهرامات الجيزة، والمقتنيات الأثرية، والمنظمات الدولية واليونسكو، وإدارة النشر العلمي بوزارة السياحة والآثار، وغيرها.

* درَّس في جامعة جونز هوبكنز وجامعة أريزونا بالولايات المتحدة الأمريكية، والجامعة الفرنسية (السوربون ٤)، وغيرها.

* حصل مؤخرًا على تكريم المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، ومُنِحَ عضوية دائمة بالمعهد وهي عضوية مهمة، تُمنَح فقط لأهم علماء الآثار في العالم. ويلقي المحاضرات الأثرية في مصر وخارجها.

* يشارك دومًا في الأفلام الوثائقية التي تنتجها القنوات الأجنبية العالمية عن مصر القديمة.

* يشغل الآن منصب مدير متحف الآثار والمشرف على مركز الدكتور زاهي حواس للمصريات بمكتبة الإسكندرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

محتويات

عن الكتاب..

إهـــداء

تقديم
لذة الاكتشافات وأسرار الآثار
الباب الأول
كنوز مصر القديمة
كواليس اكتشاف علماء الآثار
لأهم الحضارات على وجه الأرض
(١)
أسطورة الملك «توت»
(٢)
سِرُّ بناء الهرم الأكبر
(٣)
معبد البوباستيون بالإسكندرية
(٤)
وادي المومياوات الذهبية
(٦)
مقابر بناة الأهرام
(٧)
خبيئة معبد الأقصر
(٨)
منطقة تلال حيوة
(٩)
مراكب الشمس
(١٠)
خليفة الملك زوسر
(١١)
كنوز تانيس الفريدة
(١٢)
مقبرة جميلة الجميلات
(١٣)
عام العجائب المدفونة
(١٤)

كوم الشقافة
(١٥)
كنوز الواحات البحرية
(١٦)
إلفنتين جوهرة الجنوب
(١٧)
أسرار معبد قصر قارون
(١٨)
المدينة الذهبية المفقودة
الباب الثاني
مصر في المتاحف العالمية
تفاصيل رحلات الآثار المصرية إلى الخارج
(١)
مصر في متحف اللوفر
(٢)
مصر في المتحف البريطاني
(٣)
الفراعنة في اليابان
(٤)
الفراعنة في بلتيمور
الباب الثالث
أغرب الاكتشافات التي عرفَها العالم
صفحاتٌ من تاريخ الآثار
لم تسمع عنها من قبل
(١)
كنوز أور الساحرة
(٢)
لفائف البحر الميت
(٣)
جيش من التماثيل يحرس الإمبراطور!
(٤)
ثورة في تاريخ أصول البشرية
(٥)
نشأة علم الآثار الغارقة
(٦)
أسرار كهف لاسكو!
(٧)

حقيقة إنسان الجليد
(٨)
حضارة المايا تخرج عن صمتها!
(٩)
أسرار حضارات أمريكا المدهشة!
خاتمة
المؤلف في سطور

Notes

[←1] (1) طبوغرافيا: علم التضاريس الذي يمنح تمثيلًا دقيقًا لسطح الأرض، أو علم توقيع ورسم الهيئات الطبيعية والاصطناعية بمقياس يعطي رسمًا هندسيًّا مصغرًا لجزء من الأرض التي توضِّح كل المعالم والمظاهر ذات الأهمية الاستراتيجية بها.